٢٠٢٤

تساؤلات حول أيديولوجيا الإخوان

حامد فتحي
صحفي مصري

لماذا صنع الإخوان المسلمون من (علي عزت بيجوفيتش) رمزاً دينياً؟

حين زار الرئيس التركي رجب طيب أردوغان القاهرة عقب أحداث الربيع العربي، نصح المصريين بالعمل على بناء دولة علمانية، مؤكداً أنّ الدولة العلمانية لا تعني دولة اللّادين. مثّلت تلك التصريحات النقيض من الصور الذهنية التي صنعها الإخوان المسلمون في مصر عن أردوغان، والتي صُوّرت فيها النجاحات التي حققها خلال العقد الأول من رئاسته الحكومة على أنّها نجاح للإخوان المسلمين ونهجهم.

موقف آخر شبيه بذلك، هو الصورة الذهنية التي صنعها الإخوان المسلمون والتيارات السياسية الإسلامية بشكل عام للزعيم الوطني البوسني، الرئيس الراحل علي عزت بيجوفيتش، فقد جعلوا منه فيلسوفاً إسلامياً ومجاهداً، وجعلوا من قضية البوسنة والهرسك قضية إسلامية. فهل كان بيجوفيتش مثل هذه الصورة؟

حرب عرقية

رغم أنّ التمايز الأساسي بين الجهات المتحاربة في الحرب البوسنية (١٩٩٢-١٩٩٥) كان على أساس عرقي ـ ديني، إلا أنّها لم تكن بأيّ حال حرباً دينية؛ إذ أنّ الولايات المتحدة والغرب وقف إلى جانب البوشناق، وهم (مسلمو البوسنة والهرسك)، والكروات (مسيحيون كاثوليك)، ضد الصرب وهم (مسيحيون أرثوذكس). كما أنّ الحرب البوسنية هي حلقة من الحلقات الأخيرة في عهد دولة

يوغوسلافيا التي تكونت من الدول التالية المستقلة: صربيا والجبل الأسود وسلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك وكوسوفو.

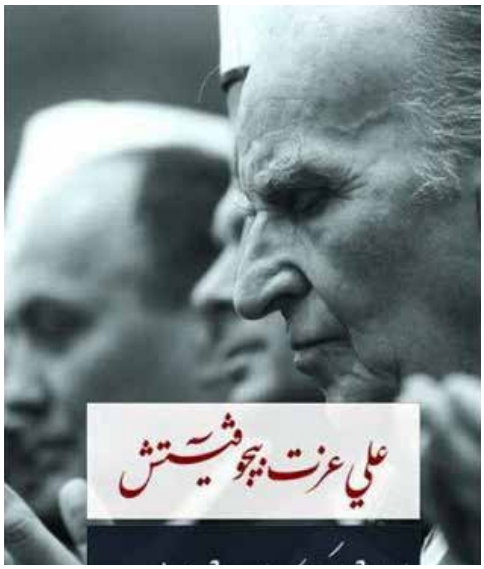

الإسلام هوية للشعب البوسني

خلال الحرب في البوسنة برز الزعيم البوسني علي عزت بيجوفيتش، الذي تولى رئاسة البوسنة بعد الاستقلال، والذي تحول لاحقاً إلى أسطورة في العالم الإسلامي، ووصفته قناة (الجزيرة) بـ «المجاهد المجتهد».

يقول الباحث في قضايا الحركات الإسلامية هاني عمارة: إنّ قضية البوسنة صُوّرت على أنّها قضية دينية إسلامية، لكنّها في الغرب كانت قضية ديمقراطية، بينما كان الهدف الغربي هو تحطيم دولة يوغوسلافيا، رغم أنّها لا ينطبق عليها مسمّى الشيوعية كما كان الاتحاد السوفييتي، وكانت علاقاتها جيدة بالولايات المتحدة والغرب، وفتحت البلاد للأجانب، وكانت دولة صناعية واقتصادية كبيرة اقتصادياً، لكنّ الغرب خطط لتدميرها.

الجدير بالذكر أنّ قضية البوسنة والهرسك اشتعلت بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، وبعد الحرب الروسية الأفغانية، التي شهدت توظيف الولايات المتحدة، بالتعاون مع دول إسلامية على رأسها باكستان، للدين الإسلامي في الحرب ضد الاتحاد السوفييتي. خلال تلك الفترة دُعمت الجماعات السلفية الجهادية التي قاتلت بجانب التشكيلات المسلحة الأفغانية، كما شهدت تلك الفترة تأسيس تنظيم (القاعدة) في باكستان.

في ظل تلك الأجواء تحولت قضية البوسنة والهرسك إلى قضية إسلامية، والتحقت أعداد محدودة من المحسوبين على تنظيم (القاعدة) و(حزب الله) اللبناني للقتال إلى جانب القوات البوسنية، التي كانت تقاتل قوات العرق الصربي، بينما تحالفت معظم الوقت مع قوات العرقية الكرواتية. وفي العام ١٩٩٩ شنّ حلف الناتو هجمات جوية واسعة النطاق ضد دولة صربيا والجبل الأسود -التي انقسمت

«تنبع أهمية مؤلفات بيجوفيتش من كونها تعبيراً عن الهوية البوسنية التي تعرّضت لتأثيرات كبيرة أثناء التوجهات الشيوعية لدولة يوغوسلافيا»

عام ٢٠٠٦ بين صربيا والجبل الأسود- وذلك بسبب الأزمة في كوسوفو، ممّا يثبت ثانيةً أنّ الموقف الغربي من تفكيك يوغوسلافيا، التي كانت عضواً مؤسساً في حركة دول عدم الانحياز، إلى جانب مصر والهند ودول أخرى، لم ينبع بأيّ حال من منطلقات دينية، دون استبعاد توظيف الدين خلال تلك الفترة.

توظيف الإسلام

يرى هاني عمارة أنّ الإخوان المسلمين ساعدوا الدول الغربية في الحرب ضد الشيوعية، وكانوا يسعون لتحويل القضية البوسنية إلى قضية المسلمين ضد المسيحية، لكنّها كانت حرباً عرقية في الأساس، في منطقة البلقان التي يختلط فيها العرق بالدين، ولهذا فالإسلام عند البوشناق هو قومية في المقام الأول.

أمّا عن سبب التركيز على بيجوفيتش، فقد قال: إنّ أسلمة القضية البوسنية كانت تتطلب زعيماً إسلامياً من تلك المنطقة، فكان ذلك هو بيجوفيتش، على الرغم من أنّه يُصنف كيساري ولا يُعتبر مفكراً أو رمزاً إسلامياً بأيّ حال، وهو مثل روجيه جارودي. ولفت إلى أنّ الإخوان المسلمين الذين يبجلون مؤلفات بيجوفيتش هم في الحقيقة لم يأخذوا منها سوى العناوين.

في كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» يظهر بيجوفيتش كرجل أوروبي يتبنّى رؤية إسلامية تجديدية في إطارها العام، دون احتكاك بالقضايا الإسلامية التي تشكل جزءاً كبيراً من أزمة الفكر في الدول العربية والإسلامية. كتب: إنّ «أيّ تلاعب بالناس، حتى ولو كان في مصلحتهم، هو أمر لا إنساني، أن تفكّر بالنيابة عنهم، وأن تحررهم من مسؤولياتهم والتزاماتهم، هو أيضاً لا إنساني». وفي موضع آخر كتب: «فإذا وجدنا خصوماً للثورة في نطاق الدين، فهم خصوم ينتمون إلى الدين الرسمي فقط،

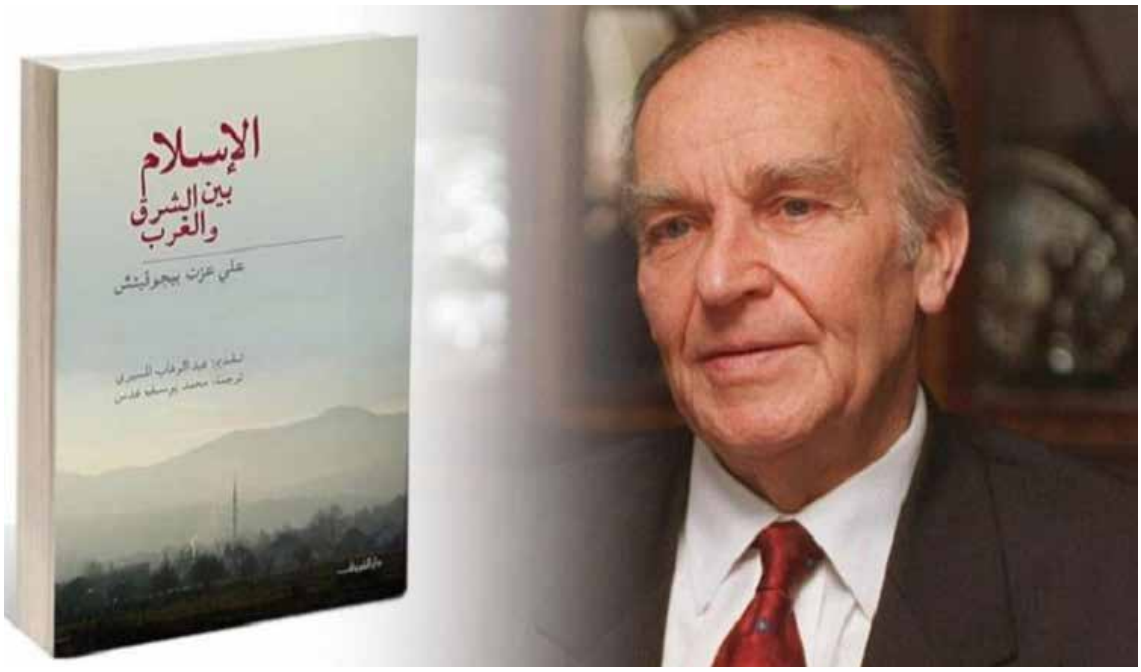

بيجوفيتش: يوجد ملحدون على أخلاق، ولكن لا يوجد إلحاد أخلاقي

أي إلى الكنيسة ونظامها الإداري الهرمي، أو الدين المؤسسي الزائف. وعلى العكس، فإنّ الثورة الزائفة، أي الثورة التي تحولت إلى مؤسسة وإلى بيروقراطية، تجد دائماً حليفها في الدين الذي تحول هو أيضاً إلى مؤسسة وإلى بيروقراطية. فما أن تبدأ الثورة تكذب وتخدع نفسها حتى تمضي مع الدين المزيف يداً بيد».

وكتب: «يوجد ملحدون على أخلاق، ولكن لا يوجد إلحاد أخلاقي. والسبب هو أنّ أخلاقيات اللّا ديني ترجع في مصدرها إلى الدين. دين ظهر في الماضي ثم اختفى في عالم النسيان، ولكنّه ترك بصماته قوية على الأشياء المحيطة، تؤثر وتشع من خلال الأسرة والأدب والأفلام والطرُز المعمارية».

إنّ ما كتبه بيجوفيتش لا يُعتبر بحال «فلسفة»، ولكنّه إنتاج فكري لشخصية بارزة، عاصرت فترات مهمة في تاريخ البشرية واشتبكت معها. وتنبع أهمية مؤلفات بيجوفيتش من كونها تعبيراً عن الهوية البوسنية، التي تعرضت لتأثيرات كبيرة أثناء التوجهات الشيوعية لدولة يوغوسلافيا، ومن قبل تأثرت منطقة البلقان بشكل عام بقرون من الحروب بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية، والتي اكتسبت لوقت طويل صفة الحرب الدينية، قبل أنّ يُتخطى عامل الدين فيها، ويصطف الغرب إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا القيصرية.

«الباحث هاني عمارة لـ (حفريات): الإخوان المسلمون ساعدوا الدول الغربية في الحرب ضد الشيوعية، وكانوا يسعون لتحويل القضية البوسنية إلى قضية المسلمين ضد المسيحية، لكنّها كانت حرباً عرقية.»

الإخوان والبوسنة

أمّا الدولة ذات التأثير الكبير في أحداث البوسنة، فقد كانت تركيا، التي حكمت لقرون منطقة البلقان ومناطق في وسط أوروبا، بما فيها دولة المجر اليوم، ولهذا سعت إلى تفكيك دولة يوغوسلافيا، للنفاد إلى الأقليات المسلمة في البوسنة وكوسوفو، بهدف استعادة أمجاد دولتهم، كما حاولوا في المنطقة العربية بعد الربيع العربي.

يقول الباحث عمارة: إنّ «تركيا كانت عرّاب حرب إسقاط يوغوسلافيا، وهي من قادت العالم الإسلامي بذريعة إسلامية، كما فعلت باكستان في أفغانستان أثناء التواجد السوفييتي فيها». وتابع أنّ الشعب البوسني لا يدين بالإسلام بالطريقة نفسها السائدة في الدول العربية والإسلامية؛ إذ تحولت الطقوس الدينية إلى عادات اجتماعية لديهم.

وحول تواجد جماعة الإخوان المسلمين في البوسنة والهرسك، جاء في التقرير الصادر عن مشروع مشترك بين مركز جلوبسيك (GLOBSEC) ومشروع مكافحة التطرف (CEP)، من إعداد أندريا مارينكوفيتش، ومارتينا فالوشياكوفا، وفيكتور ساكس، أنّ جماعة الإخوان المسلمين في البوسنة، على الرغم من نفوذها في المناصب العليا، موضع خلاف عميق وموضوع جدل عام محتدم؛ لأنّ الكثير من السكان، على الأقل في المدن، علمانيون سياسياً حتى لو كانوا متدينين شخصياً.

هاني عمارة: تركيا كانت عرّاب حرب إسقاط يوغوسلافيا

وتربط البوسنة ومصر علاقات وطيدة؛ فقد شارك الجيش المصري بقوات حفظ السلام في البوسنة والهرسك إبّان الحرب اليوغوسلافية التي اندلعت عام ١٩٩١، وشاركت قوات الجيش وعناصر الشرطة المصرية في تنفيذ مهام حفظ السلام ثم إنفاذ السلام وفقاً لقرارات مجلس الأمن الدولي لعام ١٩٩٢. وبين القاهرة وسراييفو علاقات تاريخية ممتدة في الجوانب الثقافية والدينية والسياسية. ولهذا فمن الصعب أن يجد «الإخوان» المساحة نفسها للانطلاق نحو مهاجمة مصر كما كان الحال في تركيا من قبل. من جانب آخر، فالبوسنة والهرسك ليست دولة قومية واحدة تدين بالإسلام على غرار تركيا في مسألة الدين وهيمنة القومية التركية، لكنّها دولة مكوّنة من (٣) عرقيات كبرى؛ البوشناق والصرب والكروات، وتبلغ نسبة الإسلام فيها ٥٠،٧٪.

الإخوان المسلمون:
استغلال المرأة لتمكين الرجال سياسيا

بتجنيب الأحكام القيمية والأخلاقية على جماعة الإخوان المسلمين، يمكن القول أنّه لولا الأدوار التي تقوم بها المرأة المنتمية إلى الجماعة، لما كُتب لها البقاء على مدار العقود السابقة، مع ما تعرضت له من انتكاسات نتيجة اصطدامها وعدائها مع الدولة الوطنية.

ولا يقتصر أهمية دور المرأة على جماعة الإخوان فقط، بل هو دور هام بجميع أشكاله، سواء أكانت المرأة نفسها فاعلة في عمل عام أو داعمة. وعلى سبيل المثال، تلعب المرأة في جماعة الإخوان أدواراً كبرى مباشرة وغير مباشرة، منها تقديم الدعم للرجل الذي يباشر العمل السياسي، وتحمل أعباء كبرى نتيجة هذا الدور، ثم انخراطها في تقوية الجماعة عبر السير بحياتها كأنثى لخدمة ذلك الهدف، من خلال ربط اختيار شريك حياتها بأنّ يكون عضواً في الجماعة.

فضلاً عن ذلك، تُستغل المرأة في العمل السياسي الداعم للجماعة، وقد لا يعتبر ذلك استغلالاً إن كان ذلك نابعاً من إرادة حرة للمرأة وهو الغالب التزاماً منها بخدمة الجماعة، لكن من جانب آخر يعتبر ذلك استغلالاً لأنّ هذا الدور السياسي الكبير يُقابل بتحقير من شأن المرأة، عبر وصمها لكونها أنثى بصفات تجعل منها غير صالحة لممارسة وتبوأ المناصب الهامة في العمل العام، مع الحفاظ على كونها جندية لخدمة طموحات الرجال السياسية باسم الدين.

زينب الغزالي

المرأة في خدمة الجماعة

في تقرير نشره موقع «الجزيرة» للكاتبة زهرة العلا حول أسباب انضمام النساء إلى جماعة الإخوان المسلمين، نقلت الكاتبة عن دراسة الباحثة النرويجية «Ragna Lillevik» بأنّه رغم تناول الباحثة لأسباب ضعف التمثيل السياسي للنساء داخل الجماعة، فإنها أكدت أن حضور المرأة داخل التيارات والحركات الدينية ساهم بشكل واسع في أسلمة المجتمع، وساهم في تكوين شبكات اجتماعية جديدة وسّعت من تغلغل التيار الإسلامي في المجتمع، إلا أن هذا التفاعل مع المجتمع لا يستخدم خطاب وأدوات الحركة النسوية نفسها.

وفي نفس المقال، أشارت الكاتبة إلى أنّ توفير بيئة حاضنة للعمل التطوعي والدعوي للنساء من خلال الشبكات النسائية داخل الجماعة، مكنها من استقطاب الفتيات الراغبات في العمل التطوعي. واستفادت الجماعة من ذلك عبر تشكيل هؤلاء النسوة «قاعدة داعمة لانتشار الجماعة بين أوساط الطبقات الاجتماعية المختلفة قبل ثورة ٢٥ يناير، وفي عدة دوائر لم تستطع النسويات أنفسهن

«مسؤول قسم الأخوات في مصر دوما ما يكون رجلاً ولم يكن ثمة امرأة واحدة داخل مكتب الإرشاد أو مجلس شورى الجماعة على مدار تاريخها»

الوصول لها والاحتكاك بها مباشرة، ويعد ذلك عاملاً مهما في الصعود السياسي للإخوان فيما بعد.»

وإلى جانب التجنيد والاختراق الاجتماعي عبر عضوات الجماعة، لعبت المرأة دوراً كبيراً في خدمة الجماعة، وتحديداً الطموح السياسي لرجال الجماعة، كما في حالات حشد الأصوات الانتخابية للنساء في أوقات الانتخابات. على سبيل المثال في مصر، وتحديداً في القرى استغلت نساء الإخوان الصلات الاجتماعية لتنظيم نقل السيدات بمختلف فئاتهن التعليمية والعمرية إلى أماكن الاقتراع، وهي ميزة تواصل لا يمكن للرجال القيام بها في البيئات المحافظة.

كما شاركت المرأة الإخوانية في جميع الفعاليات الداعمة للعمل السياسي العام لجماعة الإخوان. وفي الفترة قبل أحداث الربيع العربي كانت المرأة تشارك في الفعاليات التي تنظمها الجماعة، ثم خلال أحداث الربيع العربي توسع هذا الدور لتتصدر الصفوف وتشارك في المسيرات والاحتجاجات. كما أنّ الجماعة تقدم المرأة للحديث أمام المنظمات الإنسانية الغربية على وجه الخصوص لكسب التعاطف باسم المرأة.

وكما تسببت مخططات الجماعة وصدامها مع الدولة الوطنية في سقوط ضحايا من المنتمين والمؤيدين للجماعة فالأمر نفسه حدث مع العضوات والمؤيدات للجماعة، اللاتي أيدن مخططاتها وصدامها مع الدولة الوطنية، كما هو الحال في مصر.

حضور المرأة داخل التيارات والحركات الدينية ساهم بشكل واسع في أسلمة المجتمع

تحجيم المرأة بالدين

وفي تقرير الكاتبة زهرة العلا الذي حاورت فيه عضوات في الجماعة، جاء ما يلي «على الرغم من توفير الجماعة للنساء ساحة آمنة للعمل الدعوي والعام، فإن ذلك لا ينفي وجود قصور في تعامل جماعة الإخوان المسلمين مع ملف المرأة، سواء في عدم تمكينها للمرأة سياسياً ولا تقلّدها لمناصب قيادية، وحصر دورها في التعبئة والحشد.» وأشارت الكاتبة إلى ملمح هام للنظرة الدونية لرجال جماعة الإخوان إلى المرأة، كتبت «حتى إن مسؤول قسم الأخوات في مصر دوما ما يكون رجلاً، ولم يكن ثمة امرأة واحدة داخل مكتب الإرشاد أو مجلس شورى الجماعة على مدار تاريخها.»

لكن كيف نجحت الجماعة في الحصول على كل هذه المكاسب من المرأة، مقابل عدم منحها شيء يذكر سوى الحديث عن العمل التطوعي، الذي توفره مؤسسات أهلية ومدنية عديدة. يقدم مقال الكاتبة ندى جمال في موقع «إخوان أونلاين» بعنوان «المساواة المستحيلة بين الرجل والمرأة» مثالاً على توظيف الإخوان للدين لإبقاء المرأة في الأدوار التي تخدم الرجال في الجماعة.

«نسرين الريش لـ«حفريات»: على مستوى قضايا المرأة بشكل عام لا يختلف أعضاء الإخوان عن غيرهم ممن يبررون الكثير من التحيز ضد المرأة باسم الدين»

افتتحت الكاتبة مقالها باستنكار قائلة «نجحت العلمانية في إقناع بعض المجتمعات بوجوب المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة في كل شيء؛ في السياسة، والعمل، والحياة الاجتماعية، وفي كل الحقوق وكذلك في كل الواجبات.» وترى أنّ هذه المساواة «مصادمة لكل من الفطرة والواقع، فالفطرة والواقع في كل المجتمعات يقولان بلسان الحال والمقال: إن الذكر ليس كالأنثى؛ (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)، وأن قدرات الرجل تختلف اختلافاً كاملاً عن قدرات النساء.»

أما ما يميز المرأة بحسب الكاتبة، فهو الحنان والصبر والحب، والتعامل مع الأطفال، وحب التزين والتجمل، والاهتمام بالملابس والذهب والأثاث. وتقول الكاتبة عن المرأة «هي أكثر ارتباطاً بالقرار في البيت من الرجل.»

ولا خلاف على تلك الرؤية التقليدية لمكانة المرأة في المجتمع حين تخرج من الدعوات السلفية التي تطبق ذلك في دعوتها، وتصرح بذلك علانية، لكن حين يكون الأمر مع جماعة الإخوان المسلمين فذلك هو عين التناقض؛ كوّن الجماعة توظف المرأة سياسياً في المقام الأول دون اعتراف بهذا الدور أو عدم القيام به التزاماً بما تروج له نظرياً.

أما لمواجهة أي طموح سياسي للمرأة، فجاء في مقال الكاتبة «الرجل في المقابل أقدر على النجاح في مجالات العمل خارج البيت، وخاصة في المجالات السياسية والعسكرية والتجارية، وأقل رغبة في إنفاق المال.» ومقابل هذه الحديث، من المعروف أنّ المرأة في جماعة الإخوان المسلمين لا تقرّ في البيت، بل تنشط في الفعاليات السياسية والدعوية والترويجية لخدمة جماعة الإخوان

نسرين الريش: الإخوان المسلمين بعيدين عن مفاهيم حقوق المرأة

المسلمين، لكن مثل هذا الخطاب مطلوباً لحصر المرأة في أداء وظائف سياسية يجني الرجال مكاسبها بالمناصب القيادية.

المرأة والعمل العام

تقول رئيسة منظمة جنى وطن السورية، نسرين الريش، بأنّ أغلب العاملين في منظمات الإخوان المدنية من الرجال، ويسمحون بتواجد للمرأة في عدد من المنظمات من أجل الظهور بمظهر تمكين مشاركة المرأة، لأن ذلك مطلوباً أمام المجتمع الغربي.

وأضافت لـ«حفريات» بأنّ الإخوان لا يؤمنون بقضايا الجندر وحقوق المرأة، ولديهم رؤية لمكانة المرأة تقوم على إكمال دور الرجل، بما يحقق أهدافهم في نهاية المطاف وهي المشاركة في السلطة سواء عن طريق المعارضة أو الاتفاق مع النظام كما في الحالة السورية.

وتوضح الناشطة الحقوقية، بأنّ الإخوان يبررون وجود المرأة في العمل الدعوي والمدني لكي تتواصل مع النساء، سواء في البيوت أو في تجمعات خاصة بالمرأة، لكن ليس من كونها عضو فاعل ينافس على الأدوار كافة داخل الجماعة أو المجتمع، ولهذا لا وجود للنساء في أدوار قيادية، إلا لو كانت هناك حاجة لذلك، ووقتها يكون الدور القيادي من نصيب بنات القادة، مع رسم خطّ الحركة لهن.

وأفادت نسرين الريش بأنّ جماعة الإخوان تتصف بالطبقية فيما يتعلق بالخطاب الموجه للمرأة؛ بين خطاب لا يختلف عن الرؤى الدينية المتطرفة ويُوجه لعوام الناس، وآخر مخصص لبنات الطبقة الأعلى من الجماعة والمجتمع، يختلف في المضمون والأسلوب. وتابعت بأنّه على مستوى قضايا المرأة بشكل عام لا يختلف أعضاء الإخوان عن غيرهم ممن يبررون الكثير من التحيز ضد المرأة باسم الدين، كما في قضية العنف الأسري، الذي يجد تبريره في نصوص دينية، وكذلك في الترويج لفكرة تعدد الزوجات.

تقول الريش بأنّ «الإخوان المسلمين بعيدين عن مفاهيم حقوق المرأة، ومقياس الحق عندهم مفقود.»

الديمقراطية والتمكين الإخواني: كيف يجتمع النقيضان؟

إذا كانت الديمقراطية هي حكم الشعب نفسه بنفسه، سواء في شكلها المباشر كما كان في ديمقراطية المدن الإغريقية مثل أثينا، والنماذج الأبسط في العديد من القبائل في أوروبا وغيرها، أو في شكلها النيابي عن طريق انتخاب ممثلين الشعب في المجال النيابية، فإنّ جوهر الديمقراطية هو التداول السلمي للسلطة. ولتحقيق هذا التداول يجب النظر إلى السلطة السياسية كإدارة عليا لمؤسسات وسياسات البلاد، لتحقيق الأهداف التي انتخب الشعب لأجلها ممثليه، دون محاولة صبغ المؤسسات بطابع حزبي أو أيديولوجي، يجعلها في خدمة فصيل سياسي معين.

أما التمكين كمصطلح لدى جماعة الإخوان المسلمين، فيعود إلى عهد المؤسس حسن البنا، الذي جعله بمثابة حصد نتائج دعوة جماعته، التي تبدأ بإصلاح المجتمع ليتقبل الدعوة الإخوانية، ويطبقها في حياته، ثم تكون المحصلة في النهاية تشكيل حكومة الإخوان المسلمين، وبعدها هدف «أستاذية العالم»، بحسب أدبيات الإخوان المسلمين.

التمكين لدى الإخوان

في مقال منشور في موقع «إخوان أونلاين» كتب نائب رئيس حزب الحرية والعدالة، المنحل في عام ٢٠١٤، عن التمكين لدى الإخوان المسلمين، ما يلي: «عندما يؤمن الفرد برؤية الإخوان المسلمين، فسيقوم بتطبيق هذه الرؤية في حياته، وبالتالي إذا آمنت الأسرةُ بهذه الرؤية، فسوف يكون التأسيس على مبادئ

بخلاف ما يروج الإخوان فإن العنف متأصل في دعوتهم

تلك الرؤية، وفي النهاية إذا حدث انتشار للفكرة بين الناس، فأصبحت تمثل أساساً لحياة الأفراد والأسر والجماعات، يصبح من الممكن، بل من المتاح، أن تتحول الفكرة إلى التطبيق في المجالات العامة للحياة، وتصبح مؤسسة للنظام العام والنظام السياسي، وبهذا تصبح أساساً لتأسيس الحكومات».

أما مرحلة التمكين، فهي تلك المرحلة التي «تنتشر فيها دعوة الإخوان إلى حد يُمكّن الجماعة من تطبيق دعوتها في مختلف جوانب الحياة». وذلك بعد أنّ تتمكن الفكرة من عقول وقلوب الناس، بحيث «يصبح لها قواعد جماهيرية مؤثرة، تدعو إلى تطبيق هذه الأفكار في المجال السياسي والنظام العام والقانوني».

ولكون دعوة الإخوان المسلمين قامت على رؤية تصف المجتمع بالضلال والبعد عن الدين الإسلامي، فهي تتطلب إعادة الناس إلى الدين أولاً، من خلال بوابة واحدة وهي جماعة الإخوان، ليعودوا تابعين للجماعة التي تحتكر الصلاح والهداية، ثم يقوموا بدورهم في تمكين الجماعة من السلطة السياسية في نهاية المطاف.

ولهذا فإنّ من يحتكر الصلاح والهداية الإلهية لا يمكن له أن يسمح بتداول السلطة إذا ما وصل إليها، فكيف به أن ينقل السلطة إلى من يصفهم بالضلال،

«جماعة الإخوان تُفهم في سياق الحركات السرية التي ظهرت في الإسلام، والتي تعمل كجيتو منعزل عن المجتمع وتتخفى وراء نصوص الدين»

ولا يأتمنهم على الدين والمسلمين. تلك الرؤية عبّر عنها حسن البنا، حين وصف الحكومات المصرية المتعاقبة في العهد النيابي قبل ثورة ١٩٥٢ بقوله: «الإخوان المسلمون لم يروا في حكومة من الحكومات التي عاصروها ـ ولا الحكومة القائمة ولا الحكومة السابقة ولا غيرهما من الحكومات الحزبية ـ من ينهض بهذا العبء، أو من يبدي الاستعداد الصحيح لمناصرة الفكرة الإسلامية، فلتعلم الأمة ذلك، ولتطالب حكامها بحقوقها الإسلامية، وليعمل الإخوان المسلمون».

التمكين للإخوان المسلمين

ويُفهم من كلام مؤسس الإخوان، أنّ الجماعة تريد تطبيق فكرة «الدولة الإسلامية» وفق ما فهمه حسن البنا، ولا تريد الديمقراطية؛ فهي انتقدت الحكومات المصرية التي تشكلت في ظل حياة نيابية محدودة، وكانت على استعداد لدعم أي سلطة حتى لو مستبدة ما دامت تدغدغ المشاعر باسم الحكم الإسلامي.

تبعاً لذلك، من الوهم الظن بأنّ جماعة الإخوان المسلمين ترى في غيرهم من هم أقدر على أداء المهمة التي تشكلت جماعتهم لأجلها، وهي الوصول إلى السلطة، مستغلين في ذلك الدين الإسلامي.

في مقدمة كتاب «رسالة التعاليم» التي كتبها حسن البنا، جاء ما يلي: «هذه رسالتي إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين الذين آمنوا بسمو دعوتهم، وقدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها، أو يموتوا في سبيلها، إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجه هذه الكلمات، وهي ليست دروساً تحفظ، بل تعليمات تُنفذ، فإلى العمل أيها الإخوان الصادقون».

«الباحث سامح محجوب لـ«حفريات»: لا يوجد في فكر الإخوان تداول السلطة بل التوريث، ولهذا لا يؤمن الإخوان بأقل مبادئ الخطاب السياسي الحديث»

وفي الرسائل يتحدث البنا عن العديد من القضايا التي تقوم عليها دعوة الإخوان، ومنها البيعة للمرشد والطاعة له، وذلك لتحقيق التمكين لدعوة الجماعة، والتي تزعم أنها الحياة وفق منهج الإسلام الشامل، وهي الجملة التي ظاهرها الحق وباطنها الباطل.

بتمعن جملة البنا وجميع كتاباته يتضح أنّ هدف الجماعة هو التمكن من فكر وقلوب المجتمع، كمقدمة نحو حصد الثمار بالوصول إلى سدة الحكم، ثم في مراحل لاحقة إحياء فكرة الخلافة الإسلامية، التي تقوم على تخيلات عن دولة فاضلة، وبعدها الوصول إلى «أستاذية العالم»، وهي السيادة في العالم أجمع.

ومثل هذه الأهداف تعني أنّ الجماعة لن تتنازل عن سلطة تمتلكها يوماً بشكل ديمقراطي، ولن تقبل بعمل سياسي حرّ تنافسي، بل ستستغل كل سلطة وقدرة لسحق الآخرين، وليست تجارب الإخوان في السودان ومصر وتونس ببعيدة، ولولا إطاحة المصريين بهم في ثورة ٣٠ يونيو لكانوا تمكنوا من مؤسسات البلاد، وحولوها من مؤسسات دولة إلى مؤسسات الجماعة.

الدولة في مواجهة الأمة

ومن ضمن مقولات البنا التي تنضح بالشمولية والرغبة في قيادة العالم قوله إنّ «الزمان سيتمخض عن كثير من الحوادث الجسام، وإنّ الفرصَ ستسنح للأعمال العظيمة، وإنّ العالم ينظر دعوتكم دعوة الهداية والفوز والسلام لتخلصه مما هو فيه من آلام، وإنّ الدور عليكم في قيادة الأمم وسيادة الشعوب، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وأنتم ترجون من الله ما لا يرجون،

البيعة للمرشد والطاعة له لتحقيق التمكين لدعوة الجماعة

فاستعدوا واعملوا اليوم، فقد تعجزون عن العمل غداً». فهل في ظل هذه التعاليم التي يُربى عليها الإخوان المسلمون مساحة لتقبل التعددية وتداول السلطة التي هي أساس الديمقراطية؟

يعلق مدير بيت الشعر المصري، الشاعر والباحث سامح محجوب، بأنّ جماعة الإخوان المسلمين تُفهم في سياق الحركات السرية التي ظهرت في الإسلام، والتي تعمل كجيتو منعزل عن المجتمع، وتتخفى وراء نصوص الدين، بهدف السيطرة على المجتمعات. وأضاف لـ»حفريات» بأنّ الإخوان يرون الديمقراطية على أنّها «ليست من الإسلام بل من الكفر، ولهذا لا يقفون على أرضية الدولة الحديثة؛ فهم لا يؤمنون بفكرة الدولة بل بفكرة الأمة، وهو ما جعل مرشدهم محمد بديع يتحدث عن أحقية مواطن ماليزي في حكم مصر بينما المواطن المصري المسيحي ينظرون إليه كأهل ذمة ورعايا، لا حقوق لهم على قدم المساواة كالمواطن المصري المسلم».

وأوضح محجوب بأنّه من مبادئ الأحزاب السياسية في النظم الديمقراطية قبول الآخر والتعددية، بينما يؤمن الإخوان بفكرة الخلافة، التي تقوم على مبدأ الشورى المنحصر في عدد قليل يزكي رأس السلطة. وبحسبه فإنّ «تاريخ الدول الإسلامية الذي يؤمن به الإخوان كمقدس، والذي يأخذ مسمى الخلافة، لا توجد

سامح محجوب: الإخوان يرون الديمقراطية كفراً

فيه فكرة تداول السلطة بل التوريث، ولهذا لا يؤمن الإخوان بتداول السلطة، ولا يؤمنون بأقل مبادئ الخطاب السياسي الحديث».

يؤكد الباحث المصري على أنّ التعامل السياسي مع الإخوان المسلمين بمثابة انتكاس ورجوع إلى الخلف. ويشدد على أنّه «من ضروريات مواجهة التدليس الإخواني حول التاريخ، ضرورة التفرقة بين الإسلام كدين وبين الأفكار التي ظهرت حوله؛ فالإسلام في جوهره دين يدعو إلى تداول السلطة والحرية والأخذ بقيم العلم والحضارة، أما التاريخ الموسوم بالإسلامي فهو ليس سوى تاريخ من الاستبداد والانتهازية والدم».

وشدد «على نفس هذا التاريخ يسير الإخوان المسلمون؛ من حيث ادعاء القداسة مع ممارسات براغماتية انتهازية وتبني قيم العنف ورفض الآخر، وكل ذلك ليس من الديمقراطية في شيء».

كيف تؤزم جماعة الإخوان العلاقة بين الفرد والدولة الحديثة؟

منذ الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة اختلط الديني بالسياسي، لأسباب موضوعية تتعلق بظروف المجتمع المديني، والسياق العام للفكر السياسي البسيط في شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت، وطبيعة الصراعات بين المؤمنين بالدعوة النبوية وغير المؤمنين. والتي بدأت لأسباب اقتصادية في المقام الأول، في السرايا التي سيرها النبي محمد لمهاجمة قوافل قريش التجارية، للحصول على ثروات تعوض ما تخلى عنه المهاجرون من أموال وثروات لقريش مقابل الهجرة إلى المدينة.

وأياً يكن ما حدث في عهد النبي محمد، عليه السلام، فقد توفاه الله ولم يحدد نظاماً سياسياً لمجتمع المسلمين الذي غطى كامل مساحة شبه الجزيرة العربية في عهده، وفق رابط الإيمان ودفع الزكاة، لا رابط نظام سياسي لدولة محددة المعالم. ولهذا انفرط عقد هذا المجتمع بوفاة النبي، ليأتي الخليفة الأول أبو بكر الصديق ليؤسس الدولة العربية. وفي حادث السقيفة المعروف تاريخياً بسجال المهاجرين والأنصار حول النظام السياسي، لم يحدث أنّ استشهد أي طرف بوجود نظام سياسي إسلامي.

لكن بعد وفاة الخليفة الثالث عثمان، وأحداث الحرب الأهلية بين الخليفة علي والوالي معاوية بن أبي سفيان، ثم تأسيس الدولة الأموية، ستظهر النظريات الدينية عن السلطة، والتي ستتوسع في عهد الدولة العباسية، ليتم تحويل الواقع التاريخي المرن إلى نظرية سياسية إسلامية، أخذت شكلها كما في كتابات أبو

جماعة الإخوان دعت إلى تكفير الدولة الحديثة

الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، (ت ٤٥٠هـ)، خاصة في كتابه «الأحكام السلطانية».

من الخلافة إلى الدولة القومية

بدايةً لم تخلق قضية نشوء الدول والإمارات في تاريخ المسلمين الإشكالات التي ظهرت في الربع الثاني من القرن العشرين، كوّن التدين الشعبي لم ينخرط في قضايا السلطة التي كانت حكراً على قلة من النخب العربية القبلية ثم النخب العسكرية في العهد الثاني للدولة العباسية.

وعلى مستوى المنظّرين الدينيين، اقتصر السجال الديني على مواجهة الأغلبية السنّية الحاكمة، للمعارضة الشيعية التي صاغت نظرية الإمامة المحصورة في آل البيت من نسل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب، مع اختلافات كبيرة حول سلسلة الأئمة بين الفرق الشيعية الإمامية من زيدية وإسماعيلية واثني عشرية.

وتعتبر أزمة التيارات الدينية مع الدولة القومية أزمة حداثية؛ إذ إنّ تلك التيارات تبلورت من خلال الاشتباك مع الحداثة التي دخلت إلى العالم العربي مع تأسيس الدولة الحديثة في عهد محمد علي باشا في مصر (١٨٠٥-١٨٤٨).

«دعا حسن البنا إلى تكفير الدولة الحديثة وتحريم التعامل مع مؤسساتها إلا في أضيق الحدود، ومقاطعة المحاكم الأهلية وكل قضاء غير إسلامي»

ومع إنهاء الدولة العثمانية عام ١٩٢٤ على يد مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، وتأسيس الجمهورية، نشأت أزمة غياب «الخلافة» لدى المفكرين الإسلاميين، وليس الجماهير المسلمة، التي لم يكن من ضمن اهتماماتها قضية الحكم، والتي تعتبر قضية حديثة نسبياً هي الأخرى لدى عموم الشعوب، نشأت بعد انتشار التعليم الحديث، والانتشار الجماهيري للصحف ووسائل التواصل لاحقاً، ونيل تلك الجماهير حقوقاً واسعة بدأت مع تملك الأراضي الزراعية في عهد خلفاء محمد علي باشا، ومع القوانين الحديثة بشكل عام، التي رافقت تغير نمط الإنتاج ولو نسبياً.

وسيظهر مع مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، حسن البنا، إرهاصات التنظيرات الدينية حول استعادة الخلافة الإسلامية، وفكرة الدولة الإسلامية بشكل عام والتي ستصبح في مواجهة مع الدول القومية التي اتخذت شكلها في مصر منذ عام ١٩١٤ الذي شهد إلغاء تبعية مصر للدولة العثمانية، بعد فرض الحماية البريطانية عليها، وتعيين السلطان حسين كامل، كأول حاكم مستقل عن العثمانيين للدولة المصرية. ثم لاحقاً بدأت الدول القومية تظهر في المنطقة تباعاً، مع المملكة العربية السعودية عام ١٩٢٤، والمملكة الأردنية الهاشمية، ومملكة العراق، ثم لبنان وسوريا وبقية الدول العربية المستقلة على أساس جغرافي لا ديني، بعد رحيل الاستعمار الأوروبي.

وتجدر التفرقة بين الدولة القومية الحديثة والعلمانية؛ فمع تأسيس الدول القومية لم يُنتهج النظام العلماني في إدارة علاقة الدولة بالدين؛ وظلت القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية، والموروثة منذ العثمانيين ودولة محمد علي باشا معمولاً بها، بدرجات متفاوتة، خاصة في مسائل الأحوال الشخصية.

أعضاء جماعة الإخوان، في نظر البنا، جنود

الإخوان والدولة القومية

وتزامن تأسيس جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ مع إلغاء الخلافة العثمانية، والتي خلقت حالة من السجال الفكري الواسع بين المفكرين في مصر والبلاد العربية. وتبنى حسن البنا استعادة الدولة الإسلامية كهدف أساسي لجماعته التي أسسها، ويعتبر أول من نظرّ لقضية استعادة الدولة الإسلامية، ومع سيد قطب لاحقاً سيظهر التنظير المفصل والأعمق للصدام مع الدولة القومية.

وضع البنا في مصنفه «رسالة التعاليم» الأسس والأهداف التي من أجلها أسس جماعة الإخوان المسلمين، وعلى رأسها «إعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية بتحرير أوطانها، وإحياء مجدها، وتقريب ثقافتها، وجمع كلمتها، حتى يؤدي ذلك كله إلى إعادة الخلافة المفقودة والوحدة المنشودة.»

وفي الرسائل سيبث العديد من التعاليم والتوجيهات التي يُعبر عنها المصطلح الحديث الاستخدام «دولة داخل الدولة»، ومن ذلك «أن تتخلى عن علاقتك بأية هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها في مصلحة فكرتك وخاصة إذا

«الأكاديمي محمد بسيوني لـ«حفريات»: التيارات الدينية ترفض مواكبة التغيرات الهائلة التي شهدتها المجتمعات الإنسانية من فكرة الحاكم المطلق إلى حكم الشعب»

أُمرت بذلك». ومن التوجيهات أيضاً التي أسست لرفض مؤسسات الدولة الحديثة، لسبب لم يصرح به البنا، وسيصرح به منظرون لاحقون من الإخوان والتيارات الجهادية التي خرجت من رحمها، وهو «تكفير الدولة الحديثة» وتحريم التعامل مع مؤسساتها إلا في أضيق الحدود، ما يلي «أن تقاطع المحاكم الأهلية وكل قضاء غير إسلامي، والأندية والصحف والجماعات والمدارس والهيئات التي تناقض فكرتك الإسلامية مقاطعة تامة».

وفي توجيه آخر لأفراد الجماعة، أسس البنا للتمييز بين المواطنين في مصر على أساس ديني، وهو الأمر الذي كان يميز الدول كافة قبل نشوء الدول القومية الحديثة، ودعا البنا إلى «أن تخدم الثروة الإسلامية العامة بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية، وأن تحرص القرش فلا يقع في يد غير إسلامية، مهما كانت الأحوال، ولا تلبس ولا تأكل إلا من صنع وطنك الإسلامي».

ولاحقاً على مدار تجارب التيارات الدينية بدءاً من الإخوان المسلمين والجماعات الجهادية والسلفيين، ستظهر ما يمكن تسميتها حالة الانفصام عن مؤسسات الدولة الحديثة، والتعامل معها دون إيمان بدورها كأسس تقوم عليها الدولة. وعلى المستوى الشعبي بين التيارات الدينية ظهرت قضايا مثل؛ الموقف من التوظيف والعمل في مؤسسات الدولة، والموقف من تلقي المرتبات من الأموال العامة، وشرعنة استهداف تلك المؤسسات مع التيارات التكفيرية الجهادية.

محمد بسيوني: التيارات الدينية ترفض رئاسة المرأة أو غير المسلم للدولة

رفض الدولة القومية

وفي هذا السياق، ناقش المفكر عبد الجواد ياسين تلك القضايا في سلسلة مقالات بعنوان «الازدواجية الثقافية في الواقع العربي المعاصر». وكتب «بعد تبلور التيار الأصولي وظهور جماعة الإخوان المسلمين ستُقرأ عملية الاقتباس من مصدر وضعي على حساب الفقه بوصفها خرقاً لحاكمية الله الشاملة، وسيشار إلى القانون بوصفه نقيضاً موضوعياً للشريعة.»

وأشار ياسين إلى أنّ المرشد الثاني للجماعة، المستشار حسن الهضيبي، عبّر عن موقف البنا خلال مناقشة أمام مجلس الشيوخ المصري حول قانون في العهد الملكي، بقوله «هذا القانون لا يستحق النقاش من حيث المبدأ؛ لأنه لم يصدر مباشرة عن القرآن والسنة.»

ومع سيد قطب تعمقت تلك الأفكار، وظهر مبدأ «الحاكمية»، وستتابع التيارات الإسلامية جماعة الإخوان في موقفها المناهض للدولة الحديثة.

يرى الأكاديمي والباحث المصري محمد ماهر بسيوني، بأنّ التيارات الدينية تناصب فكرة الدولة الحديثة العداء؛ لأنها تقوم على المواطنة أي المساواة بين أفراد الدولة في الحقوق والواجبات، بينما ترى تلك التيارات خلاف ذلك، مثل قوامة الرجل على المرأة، وعدم قبول شهادة غير المسلم في حق المسلم.

وتابع لـ»حفريات» بأنّ التيارات الدينية تعتنق أفكار تناقض الأسس التي قامت عليها الدولة الحديثة، مثل رفض رئاسة المرأة أو غير المسلم للدولة، وغير ذلك من القواعد الفقهية التي تبلورت قبل نشوء الدولة بمفهومها الحديث. وأوضح أنّ أفكار تلك التيارات ترفض مواكبة التغيرات الهائلة التي شهدتها المجتمعات الإنسانية، من فكرة الحاكم المطلق إلى حكم الشعب، ومن الشورى غير الملزمة إلى الديمقراطية، ومن حكم الفرد أو العائلة الحاكمة إلى حكم المجالس النيابية المنتخبة، ومن مفهوم الرعايا إلى مفهوم المواطن.

الجندية عند الإخوان المسلمين:
مصائر الطاعة العمياء

من يقرأ كتاب «رسالة التعاليم» لحسن البنا، يشعر كأنّ الرجل يخاطب جنوداً، ويؤهلهم لأدوار عسكرية، بشكل يناقض تماماً الصورة التي ترسمها جماعة الإخوان عن نفسها كجماعة دينية دعوية؛ إذ إنّ الدعوة الدينية لا تتطلب الإعداد البدني والتدريب الشبيه بالعسكري.

قبل تتبع فكرة الجندية أو تدريب أعضاء الإخوان كجنود، سواء فيما يتعلق بمبادئ الجندية من السمع والطاعة والولاء والتراتبية الهرمية، أو الإعداد البدني المؤهل لاستخدام السلاح وقت الحاجة، تجدر العودة إلى مرحلة ظهور هذه الفكرة عند حسن البنا.

للخاصة لا العامة

في مقدمة كتاب رسالة التعاليم كتب البنا «هذه رسالتي إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين الذين آمنوا بسمو دعوتهم، وقدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها، أو يموتوا في سبيلها، إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجه هذه الكلمات، وهي ليست دروساً تُحفظ، ولكنها تعليمات تُنفذ، فإلى العمل أيها الإخوان الصادقون.»

ثم كتب موضحاً «أما غير هؤلاء فلهم دروس ومحاضرات، وكتب ومقالات، ومظاهر وإداريات، ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات، وكلا وعد الله الحسنى».

رسالة التعاليم: كتاب التنظيم السري للإخوان

يقول الباحث في الفكر الإسلامي، هاني عمارة، إنّ رسالة التعاليم كانت موجهة للنظام الخاص فقط، وهم من قصدهم البنا بقوله «الإخوان المجاهدون من الإخوان المسلمين»، لأنّه قسم الإخوان إلى؛ الخصوص، وهم من وجه لهم رسالة التعاليم وطبق عليهم مفهوم الجندية، والعموم ممن خصص لهم الدروس والمحاضرات والأمور التنظيمية العامة وغير ذلك.

وأضاف لـ«حفريات» بأنّه بعد مقتل البنا حَوّل الإخوان رسالة التعاليم من الخاصة إلى العموم، وأصبح كل منتسب للجماعة يتعامل معها على أنّها الكتاب المقدس للإخوان.

يستشهد عمارة من واقع تجاربه الشخصية مع عدد من قدامي أعضاء جماعة الإخوان بأنّ هؤلاء أُطلق عليهم مسمى «الإخوان الكبار» وهم من عاصروا حسن البنا، والتحقوا بالإخوان لكن لم يُكملوا في التنظيم، ومع ذلك ظل لهم وضعهم بين الجماعة. وتابع بأنّ هؤلاء كانوا يتحدثون عن الإخوان كأنها جماعة خيرية، ويفخرون بدورهم الخيري وقت انتسابهم للجماعة، لكنهم

«يقول حسن البنا في «رسالة التعاليم»: على قدر الثقة بين القائد والجنود تكون قوة نظام الجماعة، وإحكام خططها ونجاحها في الوصول إلى غايتها»

لم يكونوا على علم بكتاب رسالة التعاليم، ولم يقرأوا لسيد قطب أو تنظيرات الإخوان.

حين قُتل البنا عام ١٩٤٩ كان عمر جماعة الإخوان ٢١ عاماً، وهو وقت كاف لإعداد كوادر شبابية، تولت لاحقاً قيادة الجماعة، وكان لها دور في تعميم طابع التنظيم الخاص على عموم الجماعة، خصوصاً بعد مقتل البنا وإعدام سيد قطب.

الجندية عند البنا

جعل البنا من الجندية إحدى صفات المسلم، كتب «الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء».

يعلق الباحث هاني عمارة بأنّ مفهوم الجندية من أخطر الأفكار عند الاخوان؛ لأنّهم يربون الأفراد على الاستعداد للقتال والتضحية والطاعة. ولفت إلى أنّ البنا جعل فكرة الجندية ركناً أساسياً في تكوين المسلم، بالمخالفة للسائد في الفقه الإسلامي، الذي ينظر لمسألة الجيوش كما تفعل الدولة الحديثة اليوم.

كتب البنا موجهاً حديثه للتنظيم الخاص «أركان بيعتنا عشرة فأحفظوها؛ الفهم والإخلاص والعمل والجهاد والتضحية والطاعة والثبات والتجرد والأخوّة والثقة».

هاني عمارة: البنا جعل الجندية ركناً في تكوين المسلم

ويظهر أنّ البنا كتب «رسالة التعاليم» بعد تلقي البيعة الأولى من المجموعة الخاصة التي وصفها بالمجاهدين، ولهذا كتب «وأنت بانضمامك إلى هذه الكتيبة، وتقبلك لهذه الرسالة، وتعهدك بالبيعة، تكون في الدور الثاني، وبالقرب من الدور الثالث».

في مواطن عدة من «رسالة التعاليم» جاءت لفظة الجندية والكتيبة، وتوجيهات عديدة تتعلق بالطاعة وتنفيذ الأوامر، ومن ذلك «أريد بالثقة اطمئنان الجندي إلى القائد في كفاءته وإخلاصه اطمئناناً عميقاً ينتج الحب والتقدير والاحترام والطاعة». وفي موضع آخر «على قدر الثقة بين القائد والجنود تكون قوة نظام الجماعة، وإحكام خططها ونجاحها في الوصول إلى غايتها، وتغلبها على ما يعترضها من عقبات».

أما تحت عنوان «واجبات الأخ العامل» فذكر البنا «أن تعرف أعضاء كتيبتك فرداً فرداً معرفةً تامة، وتُعرّفهم نفسك معرفة تامة كذلك»، وكتب أيضاً «أنّ تعتبر نفسك دائماً جندياً في الثكنة تنتظر الأوامر».

وبعد تفصيل أركان البيعة، كتب البنا «هذا مجمل لدعوتك، وبيان موجز لفكرتك، وتستطيع أن تجمع هذه المبادئ في خمس كلمات: الله غايتنا، والرسول

«الباحث المصري هاني عمارة لـ«حفريات»: مفهوم الجندية من أخطر الأفكار عند الاخوان؛ لأنّهم يربون الأفراد على الاستعداد للقتال والتضحية والطاعة»

قدوتنا، والقرآن شرعتنا، والجهاد سبيلنا، والشهادة أمنيتنا.» وأن تجمع مظاهرها في خمس كلمات أخرى «البساطة والتلاوة والصلاة والجندية والخلق».

جدير بالذكر أنّ هذا الشعار انتقل من التنظيم الخاص إلى شعار عام لكل فرد من جماعة الإخوان المسلمين، وذلك مع سقوط الحد الفاصل بين التنظيم الخاص والجماعة. ولهذا فكما أثبت الواقع أنّ النزوع نحو العنف بنية أساسية في تكوين جماعة الإخوان المسلمين.

معسكرات التدريب البدني

في مذكرات حسن البنا بعنوان «مذكرات الدعوة والداعية»، كتب بعد انضمام عدد من طلاب جامعات للإخوان «نهئ هيئة الإخوان بانضمام هذه الكوكبة المؤيدة إلى كتيبة رجالها العاملين». وكدلالة على هيمنة فكرة التكوين العسكري على فكر البنا، كان من بين مقررات المؤتمر الثالث للجماعة، تحت عنوان «منهاج الإخوان المسلمين» ما يلي: «كل أخ لا يلتزم بهذه المبادئ لنائب الدائرة أن يتخذ معه العقوبة التي تتناسب مع مخالفته، وتعيده إلى التزام حدود المنهاج، وعلى حضرات النواب أن يهتموا بذلك فإنّ الغاية هي تربية الإخوان قبل كل شيء». أما قبول ذلك التأديب فكتب البنا عنه بأنّ من واجبات الأخ العامل «قبول مناصفات الإخوان التأديبية».

أما في نهاية المؤتمر العام الثالث، فجاء في الكتاب «وكان مسك الختام أن بايع حضرات الإخوان فضيلة المرشد العام على الثقة التامة والسمع والطاعة في المنشط والمكره»، وهي نفس البيعة التي تتبعها الجماعات المصنفة إرهابياً مثل داعش والقاعدة.

وظف الإخوان الحركة الكشفية للإعداد العسكري

وجاء في الكتاب تفاصيل عديدة حول التدريب البدني، منها تحت عنوان «مظاهر النشاط الأسبوعي»، ما يلي؛ ليلة الكتيبة، يوم المعسكر. ويشمل يوم المعسكر التالي: «الجندية، التدريب، الاستعداد للجهاد المقدس، ذلك هو ما يعني به الإخوان المسلمون كل العناية، فيه يتكون الجيش الإسلامي وبه يستطيع أن يحق الأمل ويرفع اللواء عالياً. نرجو أن يكون لهذه الناحية أكبر قسط من اهتمام الإخوان فيعطون لأنفسهم كل أسبوع عرضاً عسكرياً يتدربون فيه».

تُذكر تلك الفقرة بالعرض العسكري لطلاب الإخوان المسلمين في جامعة الأزهر في مصر عام ٢٠٠٦، ما يدل على تطبيق الجماعة لتلك التعاليم بشكل منتظم، حتى تصنيفها جماعة إرهابية في مصر بعد ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣.

أما في قسم الرحلات الصيفية، فجاء «الغرض من هذه الرحلات التدريب العسكري والتعارف ونشر الدعوة في ضواحي القاهرة. ويشترط أن يكون لدى الأخ لباس الجوالة أو التدريب العسكري.» تلك المعسكرات أطلق البنا على رئيسها مصطلح «حكمدار» وهو رتبة في إدارة الشرطة في مصر إبان العهد الملكي.

يقول الباحث في الفكر الديني، هاني عمارة، بأنّ فرق الكشافة كانت الستار لتدريبات الإخوان، وكذلك فعلت الجماعة الإسلامية في السبعينيات، حتى

تدخلت الحكومة لضبط ذلك. وذكر عمارة بأنّ أهم من نّظر لمفهوم الجندية بعد حسن البنا، هو محمد السيد الوكيل (ت ٢٠٠٢) وله كتاب بعنوان «القيادة والجندية في الإسلام».

لئن كان حسن البنا أسس التنظيم الخاص الذي ارتكب أعمال عنف واغتيالات بحق قيادات في الدولة المصرية في العهد الملكي ودبر محاولة اغتيال الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، فإنّ الجماعة من بعده طبقت مبادئ الجندية بشكل عام على جميع المنتسبين للجماعة. لهذا يوجد خيط رفيع بين المنتسب وتحوله إلى العنف حين تصدر له الأوامر، كما حدث في مصر بعد ثورة يونيو ٢٠١٣.

تلك المفاهيم وغيرها تثبت ادعاءات الإخوان المسلمين بأنّهم جماعة إصلاحية تهدف لخير المجتمع أو تؤمن بقيم الديمقراطية والحرية وتداول السلطة، فمثل تلك الطاعة العمياء لا تحمل أياً من قيم الحرية أو الديمقراطية أو السلم.

الدولة المتخيلة لدى الإخوان:
نسخة عن ماض لا وجود له

لم تكن التيارات الإسلامية لتحلم بعودة الخلافة الإسلامية لولا التصورات المغلوطة والأفكار المجتزأة التي يتبنونها عن هذا الكيان السياسي، الذي يصح عليه وصف الديني لا التاريخي. ولم تتشكل تصورات التيارات الدينية عن ماضي المجتمعات المسلمة انطلاقاً من دراسات تاريخية منهجية، بل جرى تبني تصور أولي عن هذا التاريخ، ثم تطويع الكتابات التاريخية لتؤكد على هذا التصورات الذهنية القبْلية.

وبقدر ما تُعتبر هذه المشكلة حديثة، حيث وُجدت في البداية مع مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، حسن البنا، في كتاباته ورسائله التي حدد من خلالها أهداف ومهام تنظيمه الوليد، تعتبر بقدر ما، مشكلة موروثة من التراث الديني والتاريخي للمسلمين، الذين طغت عليهم مسحة من القداسة تجاه الفترة التأسيسية للدين الإسلامي وخلفاء النبي محمد، عليه السلام، ثم بعد ذلك من خلال الصراع مع المعارضة الشيعية.

الخلافة: العدل والثروة

من على منبر الجمعة في أحد المساجد في قرية مصرية، وقف خطيب ينتمي للتيار السلفي، منفعلاً على حال الأمة الإسلامية اليوم، ومذكراً البسطاء أمامه بالرخاء والثروات والعدل الذي عاشته الدول الإسلامية في زمن الخلافة المفقودة. وكعادة أتباع هذه التيارات، هناك عدة مرويات وقصص تُحكى في كل مناسبة، مثل القول المنسوب للخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي خاطب السحاب من شرفة

محمد الغيطاني: التاريخ الإسلامي هو تاريخ أنظمة حكم

قصره قائلاً «أيتها السماء أمطري حيث شئتِ فسيأتيني خراجك بإذن الله؟». ثم صدح الخطيب بقول الفرزدق «أولئك آبائي فجئني بمثلهم، إذا جمعتنا يا جرير المجامع».

ولم تفكر التيارات الدينية بداية بحسن البنا في ماهية تلك الدولة الإسلامية التي يعملون على استعادتها، فهي بالنسبة إليهم مجموعة من العناوين العريضة، التي تحمل صورة مثالية في كل شيء. وعند تلك التيارات تصدّر الواعظ ليكتب في التاريخ، حيث الأخير عندهم ليس علماً مستقلاً له مبادئه ومناهجه وأدواته، فتلك الأشياء هي فنون غربية هدفها تشويه صورة التاريخ الناصع.

«لو قرأت التيارات الدينية العلاقات الخارجية للدول وفق سياق عصرها، ومن منطلق أنّها نتاج بشري لأمكن لها كسر العزلة الشعورية عن العالم»

وعلى سبيل المثال، في الشق الاقتصادي الذي قامت عليه الدول في تاريخ المسلمين، يصورها هؤلاء على أنّها دولة الثراء التي كانت تمنح الأرزاق لكل شخص، دون إدراك لطبيعة الثروة في تلك الدول، والتي كانت كمثيلاتها في عصرها في كل الكوكب، تقوم على نمط أو آخر من الإقطاع والجباية الذي يصب في صالح الأقلية على حساب الأغلبية المسحوقة.

يرى الكاتب والباحث المصري، محمد الغيطاني، بأنّ ما يسمى التاريخ الإسلامي هو تاريخ أنظمة حكم، تمثّل نفسها ولا تمثّل الإسلام. وأضاف لـ«حفريات» أنّ تلك الأنظمة نشأت من الصراع على الحكم، بدايةً من الدولة الأموية، التي حكمت لنصرة بني أمية على بني هاشم، أي أنّها كانت بمثابة دولة ارتداد للقبلية، ومثل الجماعات الإسلامية اتخذت من الدين ستاراً كاذباً.

وأشار الغيطاني إلى أنّ ممارسات الأمويين تجاه آل البيت دليل على زيف الراية الإسلامية لهم، ومثلهم العباسيون الذين اتخذوا من الإسلام شعاراً، لكنهم كانوا قبليين في المقام الأول.

ويؤكد الغيطاني على ضرورة قراءة التاريخ بعمق، انطلاقاً من مفهوم أنّه تاريخ الإنسان والإنسانية في المطلق، وبنظرة نقدية لا تتبع الهوى والهوية في القراءة؛ حتى لا يكون القارئ مجرد تابع لأي كاتب.

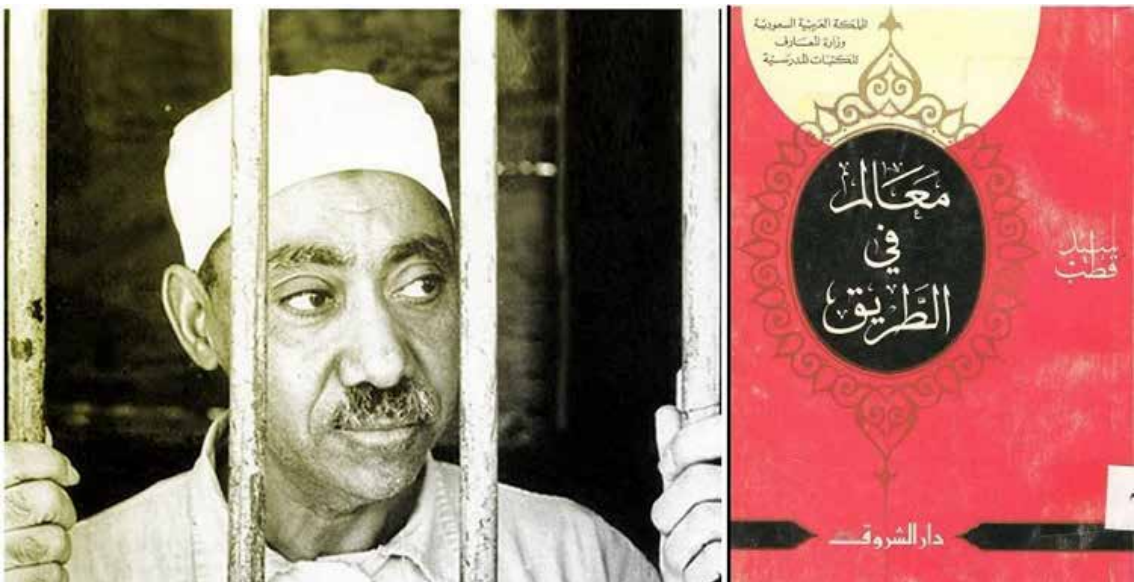

وضع قطب الأسس النظرية للدولة المتخيلة التي يؤمن بها الإسلاميون

دولة الشريعة أم شريعة الدولة

إلى جانب الصورة المتخيلة عن الأمجاد المفقودة، هناك التأسيس العقدي لوجوب تطبيق الشريعة كجزء من تلك الدولة المتخيلة. يتناول المفكر المصري عبد الجواد ياسين تلك القضية. وكتب في مقالات نشرها في موقع «بوابة الوفد»، بأنّ «هذا الطرح الأصولي يعبر عن رؤية المدونة الفقهية، الموروثة من التاريخ السياسي الإسلامي، والتي تشكلت في ظل الثقافة السائدة في العصور الوسطى بطابعها الثيوقراطي والأوتوقراطي الصريح».

ويذكر ياسين أنّه نتيجة لذلك اُختزلت الدولة في شخص الحاكم الفرد الذي يُشار إليه بولي الأمر، وهي صيغة تظهر مدى التباعد عن مفاهيم الدولة الحديثة بتكوينها المؤسسي القائم على توزيع السلطة، والفصل بين الدولة والحكومة، وتعزيز فكرة السيادة الشعبية.

كتب ياسين: «عبر هذه المدونة تخلقت فكرة الشريعة كجزء من بنية الدين. وفي واقع الأمر، لا تعبر المدونة عن أكثر من طرح خاص بسياقها التاريخي، أي عن فهم معين للإسلام». ويرى أنّ الدولة في تاريخ الإسلام هي من صنعت مفهوم الشريعة، وصدرته التيارات الدينية إلى الوعي الإسلامي كأنّه جزء من الدين. يقول ياسين بأنّ «الحضور المتواصل للدولة هو الذي كرس مفهوم الشريعة وليس

«الكاتب محمد الغيطاني لـ«حفريات»: ممارسات الأمويين تجاه آل البيت دليل على زيف الراية التي رفعوها، ومثلهم العباسيون الذين اتخذوا من الإسلام شعاراً»

العكس كما يؤكد التنظير السلفي، الذي يروج لمقولة أن حضور الشريعة في النص هو الذي أوجب إنشاء الدولة.»

ويخلص ياسين إلى أنّ الوعي الإسلامي التقليدي يقع «ضحية لهذه الفكرة التاريخية التي تضع الإسلام في خصومة أبدية مع حركة التطور الطبيعي، وحتى الآن لا يزال التضليل الأصولي يمنع هذا الوعي من مناقشة الحل الوحيد الممكن لهذه المعضلة، وهو أنّ الشريعة الفقهية ليست من المطلق الإلهي الثابت العصي على التغيير.»

ونّظر سيد قطب لذلك في كتابه «معالم في الطريق»، وكتب شارحاً الجاهلية التي وصم بها العالم، بأنّ «هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض، وعلى أخص خصائص الألوهية، وهي الحاكمية؛ أي أنّها تسند الحاكمية إلى البشر، فتجعل بعضهم لبعض أرباباً، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى، ولكن في صورة ادعاء حقّ وضع التصورات والقيم، والشرائع والقوانين، والأنظمة والأوضاع، بمعزل عن منهج الله للحياة، وفيما لم يأذن به الله.»

تغييب الإنسان

تلك التصورات التي ترى أنّ الدولة تنبع من تصور ديني، وأنّها حين التزمت بذلك قدمت مثالاً لدولة العدل والثراء والرضا الإلهي، لا تجد سنداً لها، سوى بتزييف التاريخ وتطويع النصوص الدينية. وداخل تلك التصورات يستمر تغييب الإنسان، كما كان حاله في العصور الوسطى، التي لم يكن للمجموع دور في تغيير النظم السياسية، إلا من خلال توظيفهم في صراعات النخب.

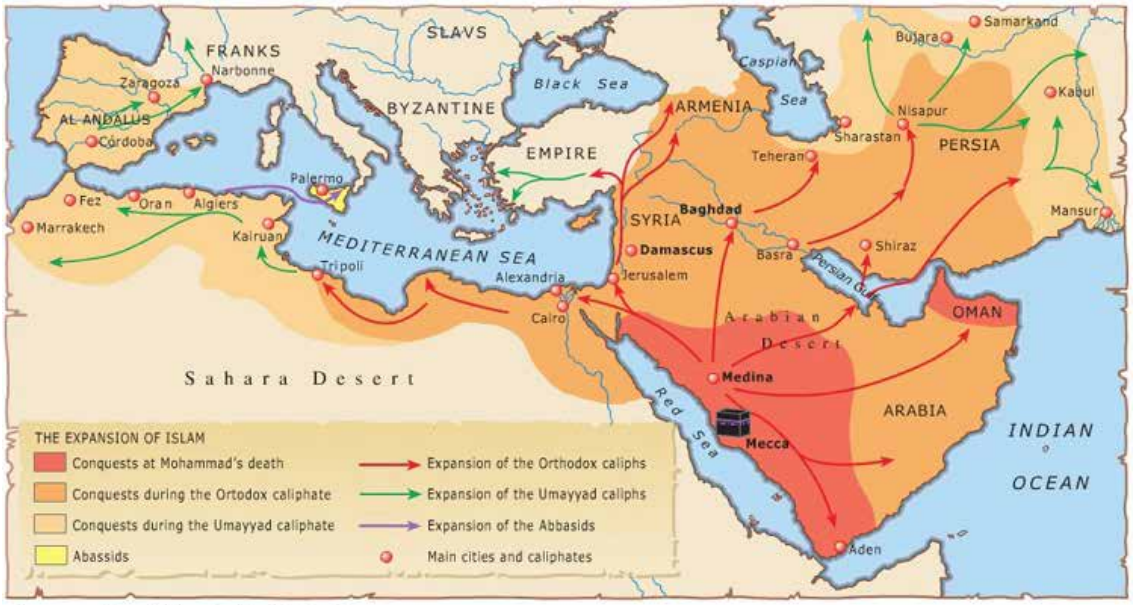

The expansion of Islam in the Middle Ages

حركة التوسعات الإسلامية لم تكن غريبة عن سياق عصرها

وللقيام بهذه الأدوار تخلط التيارات الدينية بين ذاتها وبين الدين نفسه، فتعيد تنزيل الرسالة النبوية على نفسها، وتجعل الخطاب الإلهي في القرآن موجهاً إليها. يعبر سيد قطب عن ذلك، ويقول «ولكن الله - سبحانه - كان يريد بناء جماعة وبناء حركة وبناء عقيدة في وقت واحد. كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة، كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الحركي الفعلي، وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو الصورة المجسدة للعقيدة».

وفي تلك الدولة المتخيلة، التي تراها التيارات الدينية وعلى رأسها الإخوان المسلمون، تصبح الأحداث التاريخية مثل الحرب تشريعات دينية، لتخلق أزمة التنظيمات المتطرفة الإرهابية، والتي تغذت على أفكار كهذه نتجت عن الجماعة. ولو قرأت تلك التيارات العلاقات الخارجية للدول في تاريخ المسلمين وفق سياق عصرها، ومن منطلق أنّ ذلك نتاج بشري في المقام الأول، وليس تشريعات دينية، لأمكن لها كسر العزلة الشعورية عن العالم، والأخذ بأدوات ومناهج التنمية والتقدم لتحقيق الحياة الكريمة والحرية للفرد، وفق رؤية واقعية تنطلق من واقع الاجتماع البشري، وليس من تخيلات مبنية على قراءات مجتزأة في كتب التراث، والأخيرة هي نتاج بشر وتحتاج لدرس منهجي موضوعي، لا التسليم بها كأنها تراث مقدس.

الإخوان والخصوم:
تشهير بالأعراض وتحريض على القتل

من بين الأمور التي أتاحتها تجربة الإخوان المسلمين في أحداث الربيع العربي التي انطلقت عام ٢٠١١، وتبعاتها التي ما تزال مستمرة إلى اليوم، بعد مرور أكثر من ١٢ عاماً، هي قضية التعامل مع الخصوم. تنبع أهمية تلك القضية من كونها معياراً لقياس مدى صدق الشعارات الرنانة التي ترفعها الجماعة عن الديمقراطية وتداول السلطة والحقوق والعدالة.

كان لافتاً أنّ تنشر الجماعة عبر قناتها على «تيليجرام» ورقة بعنوان «ضوابط ومنطلقات لفهم المواقف السياسية للإخوان» من إعداد عضو مكتب الإرشاد بجماعة الإخوان المسلمين، محمد عبد الرحمن المرسي. قام المرسي بإظهار جماعته بشكلٍ مثالي في تعاملها مع الخصوم، متجاهلاً عن عمد أنّ التجربة السياسية للإخوان المسلمين في مرحلة ما ظنت الجماعة أنّها التمكين كشفت عن زيف تلك الادعاءات التي حاول الترويج لها.

لا شرف في الخصومة

كتب المرسي «جماعة الإخوان لها أسلوبها وضوابطها في مسألة المعارضة السياسية ومواجهة الخصوم ممن يختلف معها من أبناء الوطن، حتى ولو كان صاحب سلطة فيها تجاوز وانحراف.» وذكر من الضوابط ما يلي؛ الأخلاق الإسلامية التي لا يمكن تجاوزها، ومراعاة شرف الخصومة، والحرص على عدم تجريح الأشخاص والهيئات، ومراعاة آداب الخطاب الموجه لصاحبه، والتعميم عند النقد، والرد بالمثل على من تجاوز في حقها، أو الانصراف عنه مع الالتزام بآداب القول وأخلاق الإسلام.

منير أديب: الإخوان لا يعترفون بالوطن

وكتب: «نحن لا ندعي المثالية، أو أننا فوق الجميع، ولكننا نؤمن بهذه الضوابط، ونجاهد للالتزام بها، ونتمنى أن تكون هي المناخ السائد بين مختلف القوى الوطنية والسياسية.»

وبخلاف ما يدعيه الكاتب، قدمت الفترة بين ٢٥ كانون الثاني (يناير) في مصر عام ٢٠١١ حتى ٣٠ حزيران (يونيو) ٢٠١٣ فرصة فريدة لتبيان صحة دعاوى الإخوان. في تلك الفترة ظنت الجماعة أنّها وصلت إلى مرحلة التمكين، بعد هيمنتها على القرار السياسي في مصر، مع تحقيق نجاحات كبيرة في تونس والمغرب وليبيا، وفوق كل ذلك نيلها القبول والدعم الغربي لتكون بديلاً للنظم السياسية في المنطقة.

في تلك الفترة حدثت العديد من الصدامات بين معسكر المحتجين وجماعة الإخوان المسلمين، بسبب الخلاف حول المسار المفترض لبناء النظام السياسي كما في حالة مصر. بالعكس مما يروج له عضو مكتب الإرشاد وما كتبه مؤسس الجماعة حسن البنا، قامت الجماعة بتوظيف المنبر الديني ضد الخصوم، وتشويه الأفكار التي يتبنوها من علمانية وليبرالية واشتراكية، فضلاً عن تجييش المجتمع ضدهم.

«شنت الجماعة حملات تشهير واسعة طالت جميع من عارض هيمنة الإخوان على شؤون البلاد وشملت الطعن في الأعراض والتهديد بالقتل والتعدي بالعنف البدني»

ولاحقاً في محطات خلافية أخرى، شنت الجماعة والمنتمين إليها حملات تشهير واسعة طالت جميع من عارض هيمنة الإخوان المسلمين على شؤون البلاد، وشملت الطعن في الأعراض والتهديد بالقتل والتعدي بالعنف البدني. وحين تولى محمد مرسي رئاسة الجمهورية، استخدمت الجماعة الشباب لفض الاعتصامات المناوئة لها بالقوة، كما في حادث فض اعتصام المتظاهرين أمام قصر الاتحادية.

يقول الباحث في شؤون الحركات المتطرفة والإرهاب الدولي، منير أديب، بأنّ هناك رؤى نظرية وضعها المؤسس الأول وأعطاها مسمى ضوابط، ترتبط بعدم التجريح في الهيئات أو الأشخاص أو الدولة، لكن ذلك كلام نظري ليس له علاقة بالواقع. وذكر لـ«حفريات» بأنّ الإخوان هم أكثر التنظيمات التي تقوم بالتجريح في الأشخاص والهيئات وتسعى لإسقاط الأوطان.

وأفاد بأنّ فكرة الخصومة السياسية لدى الإخوان قائمة على فكرة الاغتيال المعنوي للخصوم والمختلفين، لمجرد الاختلاف في الرأي، ولهذا كل من هو ضد التنظيم الفكرة والدعوة يتم اغتياله معنوياً إن لم يكن جنائياً.

العودة إلى مرحلة الاستضعاف

وفي موضع آخر من الورقة المنشورة لعضو مكتب الإرشاد، جاء ما يلي «يصدر الإخوان في تحديد نهجهم ومواقفهم السياسية عن عمل وموقف مؤسسي، أي بالرجوع لمؤسساتهم، واستعمال الشورى.» وتعبر تلك الجملة عن حالة التناقض التي يعيش فيها الفرد المنتمي إلى الإخوان المسلمين؛ إذ بينما تؤكد

سامح عسكر: تكتيك هدفه تصدير صورة معقولة

الجماعة على العمل المؤسسي والشورى نظرياً، تعيش الجماعة واحدة من أشد فتراتها في الانقسام وتفكيك كل ما له صلة بالمؤسسات.

يعلق منير أديب، بأنّ الأفكار النظرية عند الإخوان المسلمين لا علاقة لها بالواقع، وهي مجرد نظرية. ونوه بأنّ التطبيق والسلوك يؤكد على أنّ التنظيم سلوكه في جانب وأفكاره في جانب آخر، ولهذا فهم الأكثر اغتيالاً للأشخاص والهيئات ومحاولة إسقاط الوطن.

من جانبه، يرى الباحث في التاريخ والفكر الإسلامي، سامح عسكر، بأنّ نشر تلك الكتابات نابع من رغبة في الميل إلى الهدوء لدى الجماعة، بغرض التثبيت وجذب الأنصار. وقال لـ«حفريات» تهدف الجماعة إلى «تثبيت أنفسهم سياسياً وروحياً واجتماعياً لتجنب الدمار، لأنّ الاندفاع معناه الدمار.»

وأفاد عسكر بأنّ مثل هذا الخطاب هو تكتيك وليس مبادئ رئيسية تلتزم بها الجماعة، وهدفهم تصدير صورة معقولة، على غرار ما قبل العام ٢٠١١ في مصر،

الوطن في فكر الإخوان المسلمين «حفنة تراب نجس»

حين كانوا يتبنون خطاب التسامح والقبول، لكن حين وصلوا إلى السلطة أثبت الواقع حقيقتهم التي تخالف كل تنظير لديهم.

وأشار عسكر إلى أنّ أي جماعة تهدف إلى التمكين وخصوصاً الإخوان المسلمين حتماً تنتهج العنف والشراسة، لأنّه لا تمكين دون عنف. ولفت إلى أنّ الغالب على سلوك أفراد الجماعة هو الاندفاع والغضب والتهور، ولهذا تأتي مثل هذه الخطابات لتعيد برمجة الأفراد، لأنّ الهدف الأساسي للجماعة هو العودة والرجوع إلى الأوضاع السابقة.

الإخوان والأوطان

وفي الورقة المنشورة لعضو مكتب الإرشاد، ذكر من ضمن ثوابت الجماعة، ما يلي «الجماعة دائماً تجعل الحفاظ على الوطن، ونشر الخير فيه، وتحريره من كل سلطان أجنبي، من أهدافها الرئيسة، وهي في سبيل ذلك تجعل مصلحة الوطن والأمة فوق مصلحة الجماعة، ما لم يتعارض الأمر مع هذه الأهداف العليا.»

وربما يقصد الكاتب بالأهداف العليا تحقيق مصالح الجماعة، وعلى سبيل المثال حين أزاحت ثورة ٣٠ يونيو الشعبية في مصر بالجماعة من السلطة، لجأت

«الباحث سامح عسكر لـ«حفريات»: الغالب على سلوك أفراد الجماعة هو الاندفاع والغضب والتهور ولهذا تأتي مثل هذه الخطابات لتعيد برمجة الأفراد»

إلى انتهاج سبيل الإرهاب انتقاماً من المجتمع المصري، وخاصة المواطنين المسيحيين.

يعلق الباحث في شؤون الحركات المتطرفة والإرهاب الدولي، منير أديب، بأنّ الإخوان المسلمين لا يعترفون بالوطن، ولا يؤمنون بالدولة الوطنية، ولا يعطون حقاً للمواطنة، وإنما يتعاملون على أنهم أصحاب الرؤية ووجهة النظر وأصحاب الوطن، والمختلفون هم الاعداء.

وأشار إلى أنّ الوطن في فكر الإخوان المسلمين «حفنة تراب نجس» كما قال منظرهم سيد قطب. وتابع بأنّهم يعتبرون المسلم غير المصري أقرب من غير المسلم المصري، ويتعاملون بعنصرية شديدة مع الوطن والمواطنين. ونوه بأنّ رؤية الإخوان للوطن ليست ضبابية، بل عنصرية، وضد كل الأفكار الحديثة التي عرفت الوطن والحرية والديمقراطية وشركاء الوطن. وبحسبه فإن الإخوان مثل كل التنظيمات المتطرفة يمثلون خطراً على الأوطان؛ لأنهم يختصرون الوطن في محاولة الصعود إلى السلطة، بدعوى أنهم الذين يمثلون الدين والوطن، ولأنّ الوطن بالنسبة إليهم حفنة تراب، يمكن الاستغناء عنه أو التنكيل بالمختلفين داخله.

كيف يوظف الإخوان الهجرة النبوية سياسياً؟

ترى جماعة الإخوان المسلمين في نفسها التطبيق الصحيح للإسلام، ولهذا تُسقط ما جاء في الدين على الجماعة، وعلى رأس ذلك قضية الهجرة النبوية، التي أُحتفل بذكراها أمس، والتي تقتدي بها الجماعة وغيرها من الجماعات الدينية المتشددة في تعاطيهم مع المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة.

يقول الباحث في التاريخ والفكر الإسلامي، سامح عسكر، إنّ الإسقاطات الدينية السياسية هي تكفيرية محضة، سواء اعترفوا بذلك أم لا؛ لأنهم يستمدون معنى الهجرة فيهم، ومعنى المطاردة فيهم، بينما الآخر هو الذي يمثّل من أوقع الأذى وأوجب الهجرة، وهو إسقاط لثنائية الإسلام والكفر على واقع المسلمين اليوم.

السيرة الحركية

مع حلول رأس العام الهجري الجديد، وذكرى الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، نشطت صفحات جماعة الإخوان المسلمين في التذكير بفضل الهجرة، واستخلاص الدروس والعبر منها، مع إسقاط ذلك على واقع الجماعة.

في كتابه «المنهج الحركي للسيرة النبوية» كتب المؤلف القيادي الإخواني السوري، منير الغضبان حول سبب تأليفه الكتاب: «لا أزال أذكر في بداية الستينات عندما طلع علينا الشهيد سيد قطب رحمه الله بكتابه - معالم في الطريق - وكان نقطة تحول حساسة في الفكر الحركي الإسلامي. وقفت ملياً أمام هذه الفقرة: والسمة الثانية في منهج هذا الدين: هي الواقعية الحركية، فهو حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجتها الواقعية».

«الإخوان يرون في الهجرة النبوية معاني عديدة تنطبق عليهم، منها المطاردة والتهديد، والرغبة في تحسن الأحوال، ولهذا يمنون أنفسهم بحصول ما حدث مع النبي بإقامة الدولة»

ويتناول الغضبان السيرة النبوية كمنهج حركي، يريد من الجماعات الإسلامية تطبيقه، للوصول إلى السلطة في نهاية المطاف من أجل إقامة ما يظنه على غرار جماعته الإخوان المسلمين أو من يتشابه معها من الحركات المصنفة إرهابياً بالإسلام.

كتب الغضبان «الأسوة تبدو واضحة أكثر ما تبدو من خلال السيرة العملية للنبي عليه الصلاة والسلام، وأي اعتساف في مراحل هذا المنهج لا يوصل إلى الغاية، والتجارب الكثيرة التي خاضتها الحركات الإسلامية على مدار التاريخ تؤكد هذا المعنى.» وأضاف «فما من حركة إسلامية قامت، وأقامت منهج الله في الأرض إلا اعتمدت التنظيم السري في بداية الأمر، ثم انطلقت إلى إعلان فهمها الحركي للإسلام، من خلال الحكمة والموعظة الحسنة، ثم واجهت المجتمع المنحرف جاهلياً كان أو فاسقاً. وتسنمت سدة الحكم، واعتمدت القوة للحفاظ على المبدأ من الحرب المسلحة التي شنها أعداؤه عليه.»

وتابع «بينما بقيت قضية اعتماد السلاح والقوة في مرحلة الدعوة أمراً اجتهادياً متقيداً بطبيعة الحرب مع العدو أو الخصم.»

يبدو مما سبق أنّ جماعة الإخوان المسلمين ترى في المجتمعات العربية وذات الأغلبية المسلمة ما ذكره سيد قطب بـ»الجاهلية»، وتسعى من خلال دعوتها إلى إخراج الناس من ضلالهم إلى نور الإيمان، وكأنّ ملايين المسلمين بما لديهم من مؤسسات دينية ومفكرين وباحثين، كانوا على ضلالة حتى بدأ حسن البنا ومنظرو الإخوان الحديث عن الإسلام.

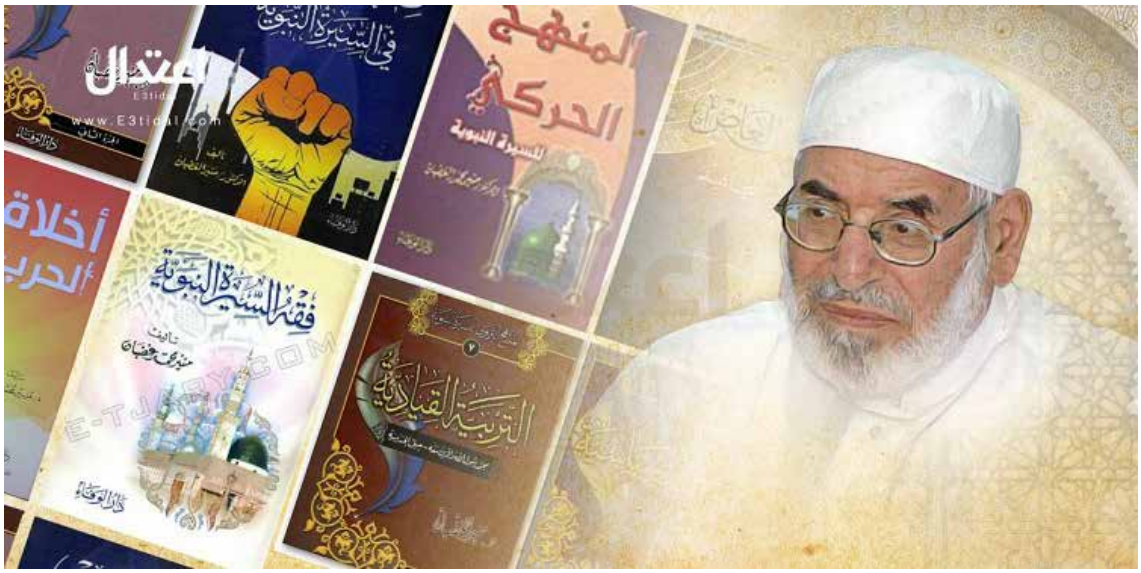

على خطى سيد قطب سار منير الغضبان

التوظيف السياسي للهجرة

يرى الباحث سامح عسكر، أنّ حادث الهجرة ذو طابع سياسي؛ حيث هاجرت جماعة كانت مهددة إلى مكان آخر، بسبب التهديد النابع من السياسة. وقال لـ«حفريات» بأنّ فكرة الهجرة النبوية محفزة للسياسة، ولأنّ قوام أيديولوجية الإخوان المسلمين هي السياسة، يحدث التطابق، وتخدمهم فكرة الهجرة في تحقيق هدفهم.

وأشار عسكر إلى أنّ الإخوان يرون في فكرة الهجرة العديد من المعاني المرتبطة بواقعهم، في ظل معاناتهم السياسية والاجتماعية والفكرية، على غرار تجاربهم منذ أكثر من عقد في الدول العربية. وأفاد بأنّ الإخوان المسلمين أقرب إلى فكر الخوارج؛ فهم يؤمنون بأنّ الإسلام فيهم وليس في غيرهم، وحتى لو تنازلوا ولم يكفروا المجموع، فهم يرون الصلاح والأهلية الدينية فيهم فقط.

ونوه إلى أنّ الإخوان يرون في الهجرة معاني عديدة تنطبق عليهم، منها المطاردة والتهديد، والرغبة في تحسن الأحوال، ولهذا يمنون أنفسهم بحصول ما حدث مع النبي في المدينة، من إقامة الدولة. وذكر عسكر أنّ الهجرة تعتبر لدى الإخوان من البشريات؛ كان المسلمون في أزمة ومنّ الله عليهم بالفتح والنصر،

لكن ما وراء تلك المعاني أنّ الإخوان يرون في خصومهم اليوم أعداء للدين، ولهذا فإسقاط الهجرة على الواقع اليوم هو تكفيري بحت.

وفي كتابه عن السيرة الحركية، ذكر منير الغضبان أنّه تابع خطى سيد قطب في عمله «في ظلال القرآن»، لإخراج منهج حركي إسلامي، يهدف إلى تحقيق الغايات الدينية، والتي تابع سيد قطب فيها، وهي «إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وتعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد، لا بقهرهم على اعتناق عقيدته، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة، بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها، والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة، تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها.»

التكفير الخفي لدى الإخوان

يتضح من كلام قطب تبنيه لمنهج التكفير أو بالحد الأدنى اعتقاده بضلال المسلمين اليوم، وضرورة إسقاط الأنظمة السياسية الحديثة من أجل إقامة دولة إسلامية تحكمها جماعة الإخوان المسلمين، التي ستقود أكثر من مليار مسلم إلى الدين الحق، ثم تتجه لانتشال نحو أقل من ٧ مليار إنسان لا يدين بالإسلام من الكفر.

متابعة الغضبان وجميع أفراد الإخوان المسلمين لسيد قطب في فكره، دون تقديم قراءات نقدية ترفض هذا النهج التكفيري، دليل على تكفير أو الحكم بضلال كل من لا ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين.

الباحث منير أديب لـ«حفريات»: توظيف الهجرة النبوية توظيفاً سياسياً ديدن كل الجماعات الإسلامية. وهناك ضرورة لقيام المفكرين ورجال الدين والمؤسسات الدينية بتفكيك هذا التوظيف السياسي للدين

ولهذا تؤمن الجماعة بضرورة العمل السري، لأنّ هدفها الإطاحة بالأنظمة السياسية والمؤسسات الاجتماعية والقوانين، من أجل فرض رؤيتها على العالم.

وفي سبيل ذلك توظف الجماعة المراحل التاريخية الطبيعية لدعوة النبي محمد، عليه السلام، مع إسقاط تهم الكفر على الآخر.

يقول الباحث في شؤون الحركات المتطرفة والإرهاب الدولي، منير أديب، بأنّ توظيف السيرة النبوية عموماً، والهجرة النبوية على وجه الخصوص توظيفاً سياسياً، ديدن كل الجماعات الإسلامية. وأضاف بأنّ تلك الجماعات وظفت ذلك واعتبرت أنّ فكرة الهجرة من مكة إلى المدينة، وإنشاء دولة في المدينة هي المرحلة الأهم، التي ربما وصل إليها النبي.

أما الفترة المكية فهي فترة ابتلاء. ونوه أديب لـ»حفريات» إلى أنّ تنظيم الإخوان يُسقط ما حدث مع النبي، عليه السلام، في مكة على ما يعانيه من تشرذم وفرار، وكأنّ التنظيم يمرّ بفترة مكية سينتقل بعدها إلى الفترة المدنية، وفي هذا يتفق الإخوان وداعش والقاعدة.

وأوضح الباحث في شؤون الحركات المتطرفة والإرهاب الدولي، أنّ هذا الإسقاط سياسي، ليس له علاقة بالفترة الدعوية التي عاشها النبي، وهو توظيف سياسي مرفوض للدين، وخارج عن السياق، لخدمة أجندة هذه التنظيمات وأهدافها.

ويحذر منير أديب، من خطر اعتماد تلك الجماعات ونشر مثل هذه التفسيرات للهجرة النبوية، وضرورة قيام المفكرين ورجال الدين والمؤسسات الدينية بتفكيك هذا التوظيف السياسي للدين.

الإخوان وتزييف التاريخ: كتابات الصلابي الطائفية عن الدولة الفاطمية

أي مصداقية تُرجى لشخص يتصدر للكتابة في التاريخ، يعنون كتاب بجملة فرعية «وفق الله صلاح الدين فقضى عليها». إنه واحد من أبرز رجالات الإخوان المسلمين الذين تصدوا للكتابة في التاريخ؛ غزير الإنتاج، معدوم الجدة، لا يملك خشية الباحث من الخطأ، فيكفيه أن يستغل اسم الإسلام، لينال المصداقية، ووراءه جماعة كبيرة وماكينات إعلامية ضخمة ودور نشر بالمئات، صنعوا منه مؤرخاً، إنّه الليبي علي محمد الصلابي.

في كتابه المعنون بـ «الصراع بين أهل السنّة والرافضة- نشر الصفحات المطوية من تاريخ الدولة العبيدية الفاطمية» يتصدى الصلابي بثقة لم يجرؤ باحث جاد في أكاديميات العالم العريقة على ادعائها، ليكتب تاريخاً كاملاً عن الدولة الفاطمية، التي دامت (٩٦٩ - ١١٧١) من التاريخ الميلادي، وكانت عاصمتها مدينة القاهرة في مصر، في ١٧٦ صفحة فقط.

لا إنكار على الصلابي في مسعاه للتأليف في التاريخ؛ لكن تلك مسؤولية كبيرة يعرفها الباحث الرصين. أما مثل الصلابي الذي تنتظره دور النشر المرتبطة بجماعة الإخوان المسلمين لتنشر له وتطبع مؤلفاته، وتروجها لتملأ البلاد العربية، دون وجود هيئة تحرير تراجع وتقيم، فهو بمثابة إعلان عن يقين مطلق، لا يليق بالباحث ادعائه، إلا أنّ كان مدعياً للحق باسم الدين، كحال التيارات الدينية التي لا تتورع عن كل فعل طالما آمنت بأنّها من تحتكر الحق والإسلام.

٨١ كتاباً

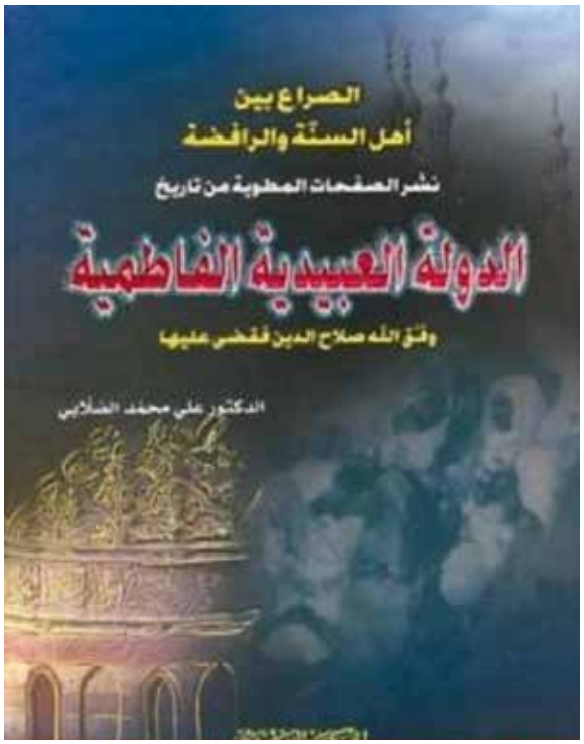

يستغل اسم الإسلام لينال المصداقية

يُحصي أحد المواقع الإلكترونية لنشر الكتب، ٨١ كتاباً، قابلين للتحميل الإلكتروني، للمؤلف علي محمد الصلابي، تتوزع ما بين التاريخ والعقيدة الإسلامية، وأغلبها في التاريخ الإسلامي. أما عن تحصيله العلمي، فقد حصل على درجة الليسانس من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣، ثم التحق بجامعة أم درمان الإسلامية في كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، لينال منها درجتي الماجستير عام ١٩٦٦ ثم الدكتوراة عام ١٩٩٩، وهو من مواليد العام ١٩٦٣ في مدينة بنغازي الليبية.

وخلال ٢٠ عاماً، ملأ الصلابي المكتبة العربية بعشرات المؤلفات في التاريخ الإسلامي، رغم أنّه لم يحصل على درجة علمية في تخصص التاريخ من إحدى الكليات المرموقة، بل كان تخصصه في العلوم الدينية، التي انطلق منها للتأليف في التاريخ، ولهذا ليس غريباً أنّ يضع جملته «وفق الله صلاح الدين فقضى عليها» أسفل عنوان كتابه عن الدولة الفاطمية.

الصلابي في مقدمة كتابه يتحدث عن الدولة العبيدية «الفاطمية» الرافضية منذ نشأتها وحتى سقوطها، ويسلط الأضواء على أسباب نجاح الدولة الباطنية في الشمال الأفريقي، ويبين حقيقة الصراع بين الرافضة وأهل السنة، ويذكر أساليب الرافضة المتنوعة في محاربة أهل السنة».

وصدر الكتاب في طبعته الأولى عام ٢٠٠٧، وجاء في ١٧٦ صفحة. فهل يمكن اختصار تاريخ الدولة الفاطمية التي تعتبر إحدى الدول الإسلامية المهمة، التي

«يتصدى الكاتب الإخواني علي الصلابي بثقة لم يجرؤ باحث جاد على ادعائها ليكتب تاريخاً كاملاً عن الدولة الفاطمية في ١٧٦ صفحة فقط»

لا تختلف عن الدول الأموية والعباسية وبقية الدول التي عرفتها مناطق العالم الإسلامي سوى في العقيدة التي تحملها نخبها، في ١٧٦ صفحة فقط. بالطبع تكفي بالنسبة لكاتب لم يُكلف نفسه عناء البدء بدراسة مصادر التاريخ عن تلك الحقبة الزمنية والاطلاع على الدراسات العربية والأجنبية السابقة في هذا الباب. فهي دولة حكم عليها لأنّ حكامها من إحدى فرق الشيعة، وأنّها «رافضية، تعادي أهل السنّة، وتحارب الإسلام»، فمثل هذه العقلية التي تؤمن باحتكار الصواب والحق لا تحمل أية قيم ومبادئ وأدبيات حول البحث العلمي، فضلاً عن مناهجه.

أي منهج للصلابي؟

يقول الباحث في التاريخ الإسلامي، ومؤلف كتاب «الدعوة الإسماعيلية في مصر»، الذي كان رسالته في الماجستير من جامعة القاهرة، حسن حافظ، بأنّ الصلابي لا يعتمد على منهج من مناهج الكتابة التاريخية، وهو صاحب أداة لتخريب وإفساد الكتابة التاريخية.

وأوضح حافظ بأنّ ما يفعله الصلابي هو مجموعة من الجرائم في حق الكتابة التاريخية والمنهج التاريخي وعلم التاريخ؛ كونه مشبعاً بأفكار جماعة الإخوان المسلمين التي تقوم على اختلاق تاريخ، ليس له علاقة بما جرى على أرض الواقع من أحداث تاريخية.

ولفت إلى أنّ الصلابي يختصر الأحداث التاريخية في رواية واحدة، بلا اشتباك أو محاولة لتحليل الأحداث السياسية والثقافية، ويعتمد على التفسير الديني من أجل تصوير الأشخاص المحسوبين على المذهب الرسمي للإسلام (مذهب

«الباحث حسن حافظ لـ«حفريات»: الصلابي مشبع بأفكار جماعة الإخوان المسلمين التي تقوم على اختلاق تاريخ ليس له علاقة بما جرى على أرض الواقع»

السلطة) في صور مثالية، من وجهة نظر المدرسة الإخوانية في تشويه التاريخ، مقابل تشويه أي خصم تاريخي لهذه المنظومة الفكرية.

يقول الباحث في التاريخ الإسلامي، بأنّ نتيجة هذا النهج نراه في تعامل الصلابي مع الدولة الفاطمية؛ إذ لا يقتصر على التشويه، بل يتناولها باحتقار شديد، ويعمل على تشويه كل ما له علاقة بتاريخهم لإثبات مقدمات في ذهنه، وهي أنّ الفاطميين بما أنّهم شيعة فهم أعداء للدين، باعتباره محتكر الحقيقة والصوابية الدينية.

في فهرس كتاب الصلابي عن الدولة الفاطمية، لا توجد فصول مخصصة لتناول المباحث الأساسية عن الدول، على غرار؛ علاقة السلطة بالمجتمع ونمط الإنتاج الاقتصادي والعمران والعلاقات الخارجية والنظم الإدارية .. إلخ، بينما ضم الكتاب فصولاً عن القادة الإسلاميين المفضلين عند الصلابي، مثل عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، ومرّ مرور الكرام على خلفاء الدولة الفاطمية، مانحاً إياهم نصيباً وافراً من التشويه والسباب والاتهامات.

أما من اجتهد من الباحثين لدراسة تاريخ الدولة الفاطمية بمنهجية وحيادية كما يتطلب البحث العلمي، فيقول عنهم الصلابي في كتابه «هذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إنّ المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق أو بالفكر الشيعي، أو بذلت لهم أموال لطمس الحقائق».

ويتابع مبدياً ما يخفيه من توظيف الفاطميين لضرب الشيعة في إيران «لتعرف أنّ الأفكار لا تموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح، وأنّ هؤلاء الملاعين

حسن حافظ: تشويه الوعي التاريخي

من أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة البيضاء الناصعة التي تلقفتها جموع أهل السنة والجماعة».

كراهية الشيعة

يقول الباحث التاريخي، حسن حافظ، لأنّ الدولة الفاطمية مثلت تحدياً كبيراً جداً للدولة العباسية السنّية، فمن الطبيعي أنّ يكون لها نصيبٌ وافرٌ من عمليات التشويه التاريخية، التي بدأت منذ عهد الصراع العباسي الفاطمي، على يد أهل السنّة في العراق والشام، بدعم من الدولة العباسية. ويشدد حافظ على أنّ تلك الهجمة كانت مفهومة في إطار الصراع السياسي بين دولتي العباسيين والفاطميين، لكن غير الطبيعي هو انتزاع هذا الصراع من سياقه التاريخي، وترديده على أنّه دوجما دون أي فهم.

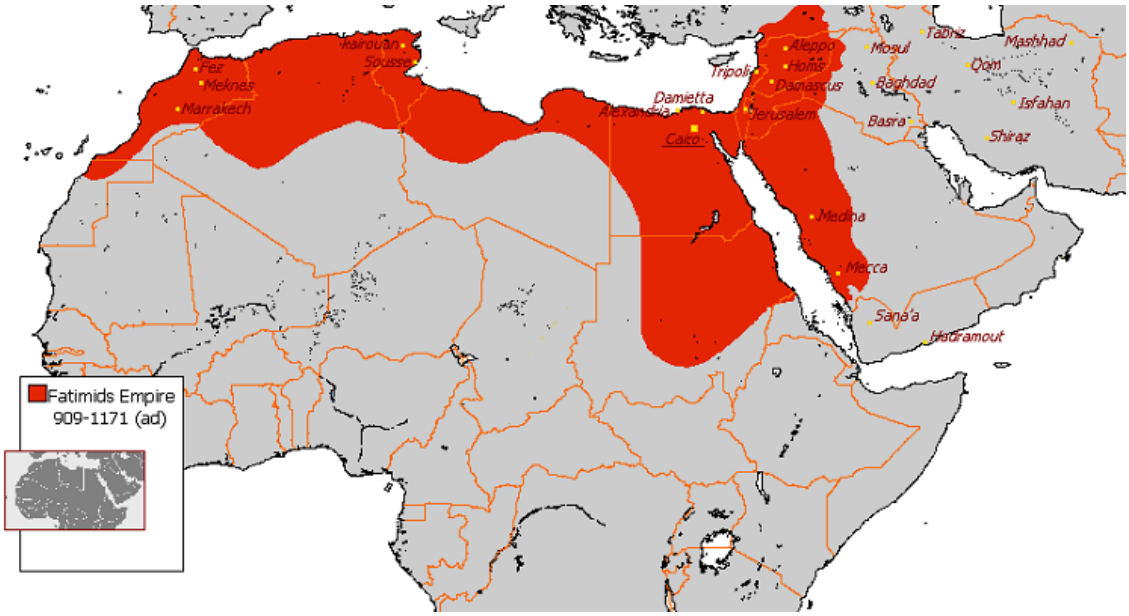

لم تختلف الدولة الفاطمية عن دول العالم الإسلامي سوى في العقيدة

وأفاد حافظ لـ«حفريات» بأنّ تشويه الفاطميين الشيعة مرتبط أساساً بالكراهية العميقة للشيعة عموماً، خصوصا بعد نجاح الخميني في إقامة دولة شيعية في إيران، باتت تمثل تحدياً للعقل السنّي المعاصر.

وأفاد بأنّه انطلاقاً من ذلك يُفهم استدعاء الصلابي الدولة الفاطمية لتشويهها، من أجل إعطاء مساحة لتشويه الدولة الإيرانية الشيعية المعاصرة، مع العلم أنّه يتغاضى عن الاختلاف العقدي بين الدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية والجمهورية الإيرانية التي تتبنى المذهب الشيعي الإمامي الإثني عشري.

يؤكد حافظ على أنّ محاولة تشويه الدولة الفاطمية أو استبعادها من سردية التاريخ المصري وتاريخ المنطقة، هي محاولة بائسة ومكتوب عليها الفشل؛ لأنها في النهاية تاريخ دولة مثل تاريخ دول حكمت المنطقة؛ على غرار الرومان والبيزنطيين والأمويين والعباسيين والمماليك والعثمانيين. وأفاد الباحث التاريخي، بأنّ التاريخ لا يمكن حذفه أو التخلص منه، لكن يمكن تقبله فقط، ولا يمكن العبث به، لأنّ ذلك يؤدي إلى تشويه الوعي التاريخي، ونمو حالة من الجبن الفكري، تنتج عن عدم القدرة على الاشتباك مع فترات التاريخ المختلفة.

ويختم حافظ بأنّ دراسة الخلافة الفاطمية بشكل نقدي يشكل مأزقاً للإسلاميين؛ لأنّهم بنوا رؤاهم الفكرية على نظرية المؤامرة والتآمر الكوني على الإسلام والمسلمين. وشدد على أنّ الدراسات النقدية المبنية على الوثائق وكتب المصادر والكشوفات الأثرية والمراجع، تكشف عن جرائم الإخوان والإسلاميين بحق التاريخ، الذين يريدون خلق تاريخ خطي من زمن البعثة النبوية إلى يومنا هذا، يخدم في النهاية أيديولوجية الجماعة وأهدافها.

الإخوان وتزييف التاريخ: التمسح بالدين لإخفاء الكسل العلمي

ما الذي يدفع بباحثيْن في التاريخ، أنّ يخرجا بسلسلة من الكتب بعنوان استعلائي «أخطاء يجب أنّ تصحح في التاريخ»، يبغيان منها كتابة تاريخ العالم بأكمله استناداً إلى رؤيتهما الدينية. إجابة هذا التساؤل في «الاستسهال»، فما أسهل أنّ تكتب تاريخ العالم انطلاقاً من رؤية دينية؛ حيث لا تحتاج إلى البحث في مصادر التاريخ، ولا تستند إلى منهج علمي، ولست مطالباً بمراجعة ما سبق نشره، بل فقط تمنح نفسك الحقّ؛ فتكتب ما تشاء وتحذف بجرة قلم ما تشاء، إنّه الكسل العلمي.

هذا ما فعله الكاتب الإخواني في التاريخ، جمال عبد الهادي محمد مسعود، في سلسلته سابقة الذكر، بالاشتراك مع أستاذة التاريخ وفاء محمد رفعت جمعة.

يعبر الكتاب المعنون بـ «منهج كتابة التاريخ الإسلامي - لماذا؟ وكيف؟» عن العقلية الإخوانية والإسلامية في أفضل حالاتها في تناول التاريخ؛ حيث يتصدى شخصان يحملان درجة الدكتوراة ليعبرا عن فكر المدرسة الإخوانية وبشكل عام التيارات الدينية في كتابة التاريخ، أو بمعنى أدق تزييف التاريخ والترويج للكسل العلمي وخيانة المنهج العلمي.

الترويج للمؤامرات

كعادة المتصدرين للتأليف في التاريخ من المحسوبين على التيارات الدينية، وفي مقدمتهم جماعة الإخوان المسلمين، تبدأ مؤلفاتهم بديباجات محفوظة

مكررة، تؤكد على حسن إسلامهم، وتصديهم للمؤامرات التي تحاك ضد الإسلام من خلال عملهم، مع الترويج لأفكار استعلائية من عينة أفضلية المسلمين على غيرهم من البشرية، وغير ذلك من الأفكار التي تعمي الإنسان عن واقعه، وتجعله ضحية لما هو آت من ترويج لنظريات المؤامرة.

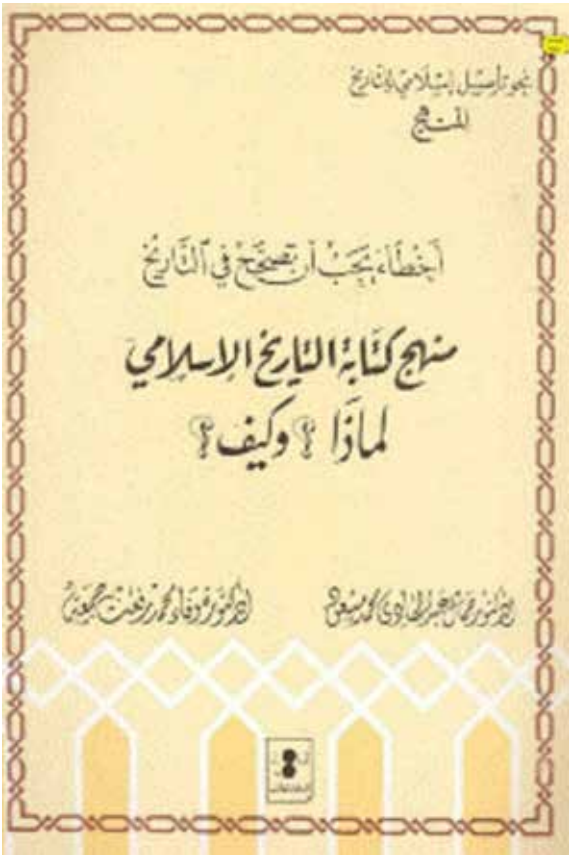

يتحول المؤلفان إلى فقهاء بدلاً من باحثين

جاء في مقدمة الكتاب «ولذلك فإنّ بني آدم لم يعرفوا تاريخاً ذا صفحات بيض مثل صفحات التاريخ الإسلامي، تاريخ الدين الذي لا يقبل الله من الأولين أو الآخرين غيره. تاريخ الأمة المسلمة الواقع التطبيقي لهذا الدين.»

بدايةً يتجاوز المؤلفان في حقّ علم التاريخ؛ حيث يمزجان بين الدين والتاريخ، فيرون في الأحداث التاريخية لمجموعة متنوعة من الشعوب والجغرافيا واللغات والأعراق .. إلخ، هوية واحدة للمسلمين فقط، تستبعد كون هؤلاء بشر في المقام الأول. ثم ينطلقان من مسلمة لديهما بأنّ هذا التاريخ بما أنّه تاريخ الأمة التي لن يقبل الله غير دينها، فهو تاريخ كله «صفحات بيض»، يجب البحث عنها وإخراجها للنور، ويعتبران كل محاولة غير إظهار هذه الصفحات البيض حرباً على الدين.

وفي ثنايا الكتاب كتب جمال عبد الهادي ووفاء جمعة: «المؤسف حقاً أنّ دور العلم التي أُنشئت أساساً لتربية الشباب المسلم الأساس الضروري لبناء الأمة المسلمة، دأبت على تلقين الأجيال تاريخاً إسلامياً مشوهاً، وتاريخاً جاهلياً مضخماً، لا عن مجرد خطأ غير مقصود، ولكن عن نية خبيثة من الاستعمار الغربي

« من السهل الكتابة عن تاريخ العالم انطلاقاً من رؤية دينية؛ حيث لا تحتاج إلى البحث في مصادر التاريخ ولا تستند إلى منهج علمي»

والصهيونية العالمية، التي يهمها ألا تجد الأمة المسلمة في تاريخها ما تعتز به، وأن ترى أوروبا - كنموذج للجاهليات - على العكس هي صاحبة الدور الأول في التاريخ الإنساني».

ما هو المنهج الإسلامي؟

يتحول المؤلفان إلى فقهاء بدلاً من باحثين؛ فبدلاً من البدء بالتعريف بالهم البحثي الذي دفعهما إلى التصدي للإجابة عن أسئلة علمية، يبدأ الكتاب بفصل بعنوان «المنهج الإسلامي للدراسات التاريخية في ضوء الدراسات المعاصرة - ضرورة شرعية» يقومان فيها بمنح كتابهما المصداقية باسم الدين، فهما يكتبان عن «تاريخ الصراع بين الحق والباطل، بين حزب الله وحزب الشيطان، تاريخ انتصار الرسل والدعاة في دعوتهم إلى الله عز وجل، واندحار موجات الكفر وأهله».

وعلى المنوال نفسه يسيران في دحض كل الإسهامات العلمية المرموقة في دراسة تاريخ العالم والمنطقة، استناداً إلى امتلاكهما الحق المطلق: «حولوه إلى تاريخ وثني جاهل محض، لا وجود فيه لدين هو الإسلام أوجب الله على البشرية اعتناقه، ولا وجود لرسل ولا أنبياء ولا حتى لوحي ولا لإله واجب التعبد له».

وينتقل المؤلفان في الفصل الثاني، بعد فصل أول لا وجود لشيء رصين فيه، ليتخذاه منبراً للهجوم على إسهامات الباحثين في التاريخ، سواء أكانوا أوروبيين أو من دول المنطقة. وجعلا عنوانه «فحص بعض الموسوعات التاريخية والمراجع التي تعرض التاريخ الإسلامي بمعزل عن المنهج الإسلامي للدراسات التاريخية».

يقولان عنها «معظم كتاب هذه الموسوعات التاريخية والمراجع والمناهج ينطلقون من منطلقات فكرية، معادية للاتجاه الديني عموماً، وللمعتقد الإسلامي على وجه الخصوص».

وينطلق المؤلفان؛ جمال عبد الهادي ووفاء جمعة، في كشف خيوط نظرية مؤامرة لا تنتهي على البشرية، روادها العلماء والباحثون الذين كتبوا قبلهما في مجالات التاريخ والآثار، ومن عاونهم من علماء البيولوجيا والجيولوجيا وكل من لم يكتب التاريخ على طريقتهما.

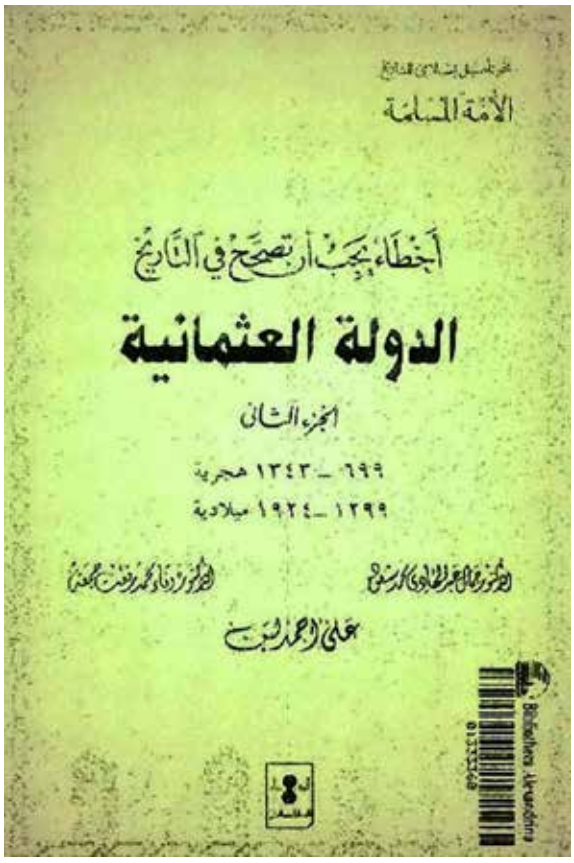

كعادة الإخوان يمجدون الدولة العثمانية

جاء في الكتاب: «هكذا تتعاون الدراسات الأثرية مع التاريخ القديم في تعميق الإلحاد والكفر في نفس القارئ والدارس».

تزييف الوعي

والطريف أنّ الكتاب يهاجم القائمين على ترجمة «موسوعة قصة الحضارة» للمؤلف ويل ديورانت، كتب عبد الهادي ووفاء جمعة: «استوحت اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية على عهد رئيسها طه حسين، من اليونسكو (هي الهيئة التي يسيطر عليها كما هو الشأن في أكثر مؤسسات الأمم المتحدة الصهيونية العالمية الهدامة)» يقصدان ترجمة الموسوعة. وغاب عنهما موقف منظمة اليونسكو الذي كثيراً ما أغضب إسرائيل، إلى حد تعليق واشنطن تمويل المنظمة جراء ذلك، لكنّ الكاتبين ليسا في حاجة إلى المصداقية، فهما امتلكاها لأنهما ينطقان باسم الإسلام، كعادة أتباع التيارات الدينية في بلادنا.

« الباحث حسن حافظ لـ«حفريات»: كتّاب الإخوان يصورون التاريخ الإسلامي على أنّه يسير في خط مستقيم يتعرض لمؤامرة كونية سيتم التصدي لها من خلالهم»

في بقية الكتاب، بعد أنّ ينتهي المؤلفان من الهجوم والتخوين والتكفير، يضعان تصوراً لكتابة تاريخ العالم، لا يختلف عن تصور طفل لم يفهم المحتوى المدرسي المقدم إليه، أو تصور واعظ على منبر لم يقرأ في حياته سوى عدة مؤلفات بسيطة المحتوى، خالية من التحليل والاشتباك المعرفي.

يعلق الباحث في التاريخ الإسلامي، حسن حافظ، بأنّ جمال عبد الهادي من نفس مدرسة الصلابي والسرجاني وإن ادعى العكس؛ فهو من المدرسة الإخوانية المتسلفة، التي تؤمن بفكرة أن هناك حقيقة واحدة للتاريخ، ويستخدمون التاريخ في الدعاية الدينية.

وأضاف لـ«حفريات» بأنّ منهج عبد الهادي قائم على فكرة المؤامرة التي تعرض تاريخ المسلمين لها، ولهذا يجب تصحيح التاريخ من وجهة نظره، وكأنّ التاريخ فيه عطب، ويحتاج إلى إصلاح على هواه، وبما يعكس رؤيته الخاصة للتاريخ. ولفت حافظ إلى أنّ عبد الهادي يستخدم التاريخ للانتصار للأيديولوجيا الإخوانية. وبشكل عام يرى حافظ بأنّ المدرسة الإخوانية التي تصدت للكتابة في التاريخ، هي بمثابة منظومة متكاملة تقوم على تدليس التاريخ، وتعمل على ابتسار الكتابة التاريخية، عبر إقصاء الروايات التاريخية التي لا يرضون عنها، وتقديم روايات وتحويرها لتخدم الأيديولوجية الإخوانية.

وتابع الباحث في التاريخ الإسلامي، بأنّ مرمى هؤلاء تصوير التاريخ الإسلامي على أنّه واحد، يسير في خط مستقيم، يتعرض لمؤامرة كونية، سيتم التصدي لها من خلال الإخوان المسلمين، وغيرهم من الجماعات المنضوية تحت ظلالهم.

كيف نظَّر سيد قطب للفاشية في كتابه «معالم في الطريق»؟

تُعطي لفظة الجاهلية التي استخدمها سيد قطب بكثرة في مؤلفاته إيحاءات دينية، على غرار المعاني التي تحملها اللفظة حين تُطلق على الفترة التاريخية في شبه الجزيرة العربية، قبل البعثة المحمدية. وحين يصف قطب واقع مجتمعات المنطقة بالجاهلية، يتبادر إلى الذهن أنّ المسلمين في بلدان العالم كافة ارتدوا إلى عبادة الآلهة التي عرفتها شبه الجزيرة العربية، وأشركوا بالله.

ومن غير المرجح أنّ سيد قطب قصد هذا بكتاباته بشكل عقدي، على غرار تناول التيارات السلفية لمسائل يرونها تدخلاً في أبواب الاعتقاد الديني، مثل زيارات القبور والتبرك بالأولياء والنذور وغير ذلك، من الممارسات المرتبطة بالصوفية الشعبية.

الجاهلية عند قطب

ومن خلال كتاب «معالم في الطريق» لسيد قطب يمكن فهم المقصود بالجاهلية. في مقدمة كتابه جاء «إنّ العالم يعيش اليوم كله في جاهلية، من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها. جاهلية لا تخفف منها شيئاً هذه التيسيرات المادية الهائلة، وهذا الإبداع المادي الفائق.»

أما ماهية هذه الجاهلية، فيقول إنها «تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض، وعلى أخص خصائص الألوهية؛ وهي الحاكمية. إنها تسند الحاكمية إلى البشر، فتجعل بعضهم لبعض أرباباً، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى، ولكن في صورة ادعاء حقّ وضع التصورات

والقيم، والشرائع والقوانين، والأنظمة والأوضاع، بمعزل عن منهج الله للحياة، وفيما لم يأذن به الله، فينشأ عن هذا الاعتداء على سلطان الله اعتداء على عباده».

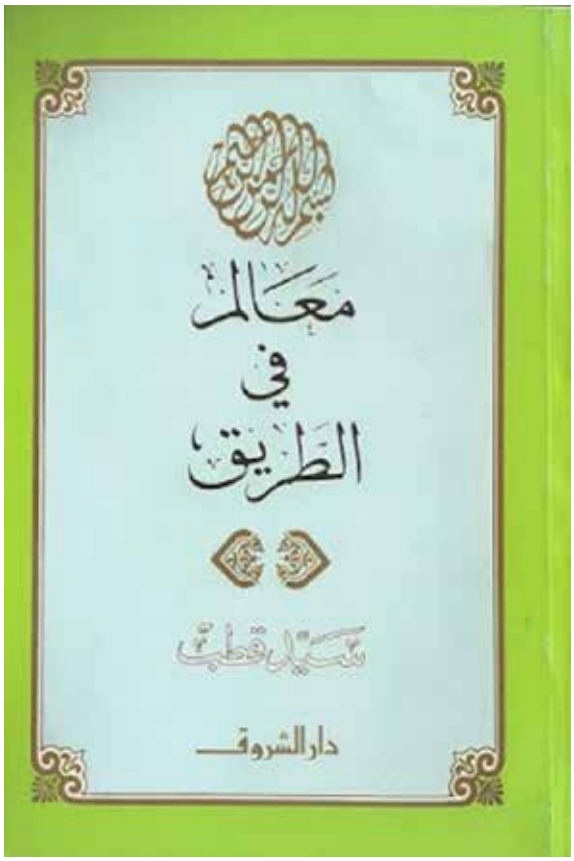

المعالم كتاب حركي شرعن للعنف

ولا يربط قطب الجاهلية بممارسات أفراد، ليكون كدعوة دينية، على غرار دعوة محمد بن عبد الوهاب في نجد، وغير ذلك، بل يقصد قضية الحكم، أي السلطة، وهو الأساس الذي تُفهم منه كتاباته، التي تتسم بالتعميم والشمولية، التي تتسق مع كونه منظراً شمولياً، ذا رؤية سياسية، وليس صاحب موقف ديني كالتيارات السلفية التقليدية.

وفي تكملة الفقرة السابقة المنقولة عن قطب، يظهر هذا التعميم الذي يشمل البشرية بأكملها، يقول «وما مهانة الإنسان عامة في الأنظمة الجماعية، وما ظلم الأفراد والشعوب بسيطرة رأس المال، والاستعمار في النظم الرأسمالية، إلا أثراً من آثار الاعتداء على سلطان الله، وإنكار الكرامة التي قررها الله للإنسان».

ويرى قطب بأنّ العالم يحتاج إلى المنهج الإسلامي، الذي فيه وحده يتحرر الإنسان من العبودية في النظم الرأسمالية والاشتراكية الشرقية (المعسكر الشرقي آنذاك).

البعث الإسلامي

وبعد أنّ حدد قطب أزمة العالم الحديث، ووضع العلاج في ضرورة سيادة المنهج الإسلامي، وتعبيد العباد لرب العباد، بعد تخليصهم من العبودية للبشر

«إذا كان طرح الجاهلية عند سيد قطب، هو سلطوية ماضوية مقابل سلطوية حداثية، فلماذا وسع فكرة الجاهلية لتشمل الواقع كله؟»

من أمثالهم، انتقل إلى تحديد الأشخاص المناط بهم هذه المهمة العالمية. ولأنّه المفكر الذي وضع يده على الداء والدواء، فهو الأجدر بتحديد الخطوات المطلوب اتباعها لتحقيق هذه المهمة الكبرى، وتلك الخطوات، تتنزل على قطب بإلهام رباني: «هداني الله إلى معالم هذا الطريق».

فالطريق الذي قصده قطب، هو طريق تحقيق تلك الغاية السابقة، والمعالم هي الخطوات والمنهج الذي وضعه لتتبعه الطليعة المؤمنة، ومن هنا جاء العنوان «معالم في الطريق»، فهو كتاب حركي، يؤكد أنّ قطب وظف الديني لهدف سياسي.

يرى الناشط السياسي، آرام كيوان محاميد، أنّ الحدية التي طبعت سيد قطب نتاج واقع سياسي اتسم بفشل الليبراليين والديمقراطيين، وصعود الحداثة السلطوية مع جمال عبد الناصر. وتابع لـ«حفريات»، بأنّ الإخوان لكونهم معارضي التصور السلطوي لعبد الناصر، وجب عليهم صياغة تصور سلطوي مناهض، وأدى سيد قطب هذا الدور كمثقف، بمفاهيمه النابعة من انحيازه وبراعته اللغوية واطلاعه الواسع. يقول كيوان بأنّ الجاهلية عند قطب هي «التصور المناهض لعبد الناصر ونظامه بشكل قطعي، بما في ذلك رفض المعارضة من داخل النظام».

لكن إذا كان طرح الجاهلية عند قطب، هو سلطوية ماضوية مقابل سلطوية حداثية، فلماذا وسع فكرة الجاهلية لتشمل الواقع كله، عندما قال «نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كل ما حولنا جاهلية؛ تصورات الناس وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم وفنونهم وآدابهم،

آرام محاميد: الإخوان بدأت دعوتها بين الفئات الاجتماعية الرافضة للحداثة

وشرائعهم وقوانينهم، وحتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ومراجع إسلامية وفلسفة إسلامية وتفكيراً إسلامياً، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية»؟

يجيب الناشط محاميد، بأنّ رفض سيد قطب وجماعة الإخوان ومن خرج من رحم أفكارهم لقيم الحداثة بكل منجزاتها، يأتي من النظر في واقع هذه الجماعة. وأضاف بأنّ جماعة الإخوان المسلمين بدأت دعوتها بين الفئات الاجتماعية الرافضة للحداثة، والتي عدتها تلوثاً وسماً في أعقاب انهيار الدولة العثمانية؛ جزء من هذا التلوث سياسي يخص السلطة، وآخر يخص قيم الحداثة والتمدن والتحرر، فصيغ تصور شمولي يشمل المجتمع والسلطة والثقافة.

الإخوان كجماعة فاشية

تبعاً لذلك، فإن مهمة جماعة الإخوان المسلمين أو العصبة المؤمنة بتعبير سيد قطب، تنقسم إلى مرحلتين، يشبهان الأهداف التي وضعها حسن

«الناشط السياسي آرام محاميد لـ«حفريات»: الجاهلية عند قطب هي التصور المناهض لعبد الناصر ونظامه بشكل قطعي، بما في ذلك رفض المعارضة من داخل النظام»

البنا في مؤلفاته. الأولى تطبيق المنهج الإسلامي الذي وصفه قطب في مؤلفاته في واقع الشعوب الإسلامية، عبر عملية بعث، ليتبع ذلك المرحلة الثانية وهي «تسلم قيادة البشرية»، وهو ما قصده حسن البنا بمصطلح «أستاذية العالم».

ولبناء هذه الطليعة، عليها العودة بحسب قطب إلى مصدر واحد فقط، وهو «القرآن الكريم»، ولأنّ القرآن كما في القول المنسوب إلى علي بن أبي طالب «القرآن بين دفتي المصحف لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال»، سيقوم قطب بهذه المهمة، اعتماداً على مؤلفه «في ظلال القرآن»، والذي قام بتعديل أربعة فصول مستخرجة منه، ووضعها في مؤلفه «معالم في الطريق».

كتب قطب: «لا بد إذن في منهج الحركة الإسلامية أن نتجرد في فترة الحضانة والتكوين من كل مؤثرات الجاهلية التي نعيش فيها ونستمد منها، لابد أن نرجع ابتداءً إلى النبع الخالص الذي استمد منه أولئك الرجال، النبع المضمون أنّه لم يختلط ولم تشبه شائبة».

وبدلاً من انطلاق قطب من واقعه، سواء بالوصف والتحليل ثم طرح الحلول، كما هو مناط بأي مفكر يتبع منهج سليم، يلجأ إلى إعادة إنتاج تاريخ البعثة المحمدية، وفق منظوره. ولهذا أوجد التمهيد الفكري للجماعات التي خرجت لاحقاً عن الإخوان المسلمين، وتبنت العنف كوسيلة للوصول إلى السلطة، بهدف تحقيق نموذج الدولة المُتخيل عند المنظرين الكبار مثل حسن البنا.

الإخوان تيار فاشي بوجه حداثي

يصف الناشط آرام كيوان محاميد، جماعة الإخوان المسلمين بأنّهم «تيار حداثي يرفع شعارات ضد الحداثة تماماً، مثل الفاشية. وأشار إلى أنّ المفكر سلافوي جيجك يسمي هذه الحالة بـ»مفارقة الماتركس». أما كيف تنتهي الجاهلية عند سيد قطب، فيرى بأنّها تنتهي «بوصول العصبة المؤمنة إلى الحكم».

ولهذا يلفت محاميد إلى أنّ الصواب مناقشة هذه التيارات من منطلق كونها فاشية؛ لأنّه في هذه الحالة لا يهم إذا كانت عالمة أو جاهلة أو صحيحة أو خاطئة، فهذا ليسَ اللب، كما أنّ موسوليني وهتلر لم يكونا جهلة، وكان حولهما مفكرون كبار مثل بندتو كروتشه منظر الفاشية. ونوه محاميد إلى أنّ «الفاشية تستند إلى مجموعة تصورات في الغالب تتفق جميعها على أفكار التفاوت الطبيعي أو العرقي، وفي حالة الجماعات الإسلامية التفاوت يحمل طابعاً دينياً».

«الإخوان» تعلن أكبر مراجعة في تاريخها: دعوات للاستهلاك الإعلامي

شهدت جماعة الإخوان المسلمين منذ الإطاحة بها شعبياً في ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣ في مصر مراجعات داخلية، قامت بها أجنحة محسوبة على الجماعة، مثل «تيار التغيير» الذي انتهج العنف ضد الدولة المصرية في بدايات انطلاقه، ثم أعلن المنتسبون إليه في الخارج عن مراجعات، ليختفوا بعدها من المشهد.

لكنّ الكتلة الصلبة في الجماعة الأم، والمنقسمة بين جبهتين؛ إسطنبول بقيادة الأمين العام السابق محمود حسين، الذي نصّب نفسه قائماً بأعمال المرشد العام للجماعة، ولندن بقيادة القائم بأعمال المرشد صلاح عبد الحق، لم تُعلن عن أية مراجعات قبل شهر أيلول (سبتمبر) الماضي.

عامان للمراجعات

خلال ظهوره الإعلامي الأول منذ أعوام، صرح المسؤول السياسي في جماعة الإخوان المسلمين – جبهة لندن، حلمي الجزار، بأنّ جماعة الإخوان شرعت في إجراء مراجعات شاملة ستمتد لمدة عامين، لأداء الجماعة في مصر منذ العام ٢٠١٣ ومراجعة المشهد السياسي المصري بشكل عام. جاء ذلك خلال استضافة برنامج «الشارع المصري» على قناة «الشرق» للقيادي الإخواني بتاريخ ١٩ أيلول (سبتمبر) الماضي.

تناول الجزار في اللقاء العديد من القضايا التي تخص واقع الإخوان المسلمين في مصر، وشدد على أنّ قضية السجناء من أفراد الجماعة هي الأولوية القصوى.

«المراجعات تعني بالأساس بحث جذور الفكر التي قامت عليها جماعة الإخوان وبمعنى أدق التخلي عن جميع الأفكار التي تشكل هوية الجماعة وبالتالي تفكيكها»

وقال بأنّ الجماعة قررت عدم الصراع على السلطة، وأنّ الأمر «يعد جزءاً أصيلاً في رؤيتنا الجديدة، وليس مناورةً سياسية». وتابع الجزار بأنّ التنافس على السلطة ليس «الشكل الوحيد لممارسة السياسة، فالعمل السياسي أوسع بكثير من الصراع أو التنافس على السلطة الذي يؤدي أحيانا إلى اضطراب مجتمعي». أما أولويات الإخوان المسلمون بحسبه فهي «الاهتمام بالمجتمع وبناء شبكات الحماية الاجتماعية».

وأوضح الجزار بأنّ رؤية الجماعة هي «فتح صفحة جديدة للحوار مع الجميع، وطي صفحة الخلافات. واعتبار تسوية قضية المعتقلين وإنهاء معاناة أسرهم - أولوية قصوى للعمل السياسي في هذه المرحلة».

ودعا مسؤول المكتب السياسي جميع سائر القوى السياسية لمراجعة مواقفها ونبذ الأنانية السياسية، مشيراً إلى أنّ الجماعة بدأت مراجعة جادة لمسيرتها خلال السنوات العشر الماضية، داعياً لمصالحة مجتمعية شاملة تتجاوز جميع التحديات التي تمر بها مصر. وتطرق الجزار إلى علاقة جماعة الإخوان بالمملكة العربية السعودية بعد انتقادات طالت الجماعة لإشادتها بالتنظيم الناجح لموسم الحج، وقال: «علاقة الجماعة بالمملكة العربية السعودية تاريخية وطيبة، ونريد أن نطوي صفحة الخلافات معها، ونحن حريصون على مد أيدينا للمجتمع العربي بشكل عام؛ فنحن دعوة إسلامية تحاول الإصلاح، وتريد الخير للأوطان».

أما عن الخلافات داخل جماعة الإخوان، فوصفها بـ«الخلاف الإداري وليس خلافاً فكرياً، وكان هذا الخلاف في الماضي، وينحسر الآن في الحاضر، وسينتهي في المستقبل بإذن الله».

الإخواني حلمي الجزار: بدأنا مراجعة جادة

مراوغات متجددة

بيد أنّ حديث الجزار لم يخل من تناقضات؛ فعدم التنافس على السلطة ليست سوى تكتيك مرتهن بالظروف الحالية، حيث يقول الباحث في الفكر الديني والإسلام السياسي، عبد السميع جميل، إنّ دعوة حلمي الجزار في حقيقة الأمر، «مثيرة للضحك»؛ ليس فقط لكونها دعوة لوقف العمل السياسي الإخواني على لسان المسؤول نفسه عن المكتب السياسي للإخوان، وكأنها دعوة من شخص يتحدث عن تجريده من صفته الإخوانية السياسية الرسمية إن كانت دعوته صادقة.

وأضاف لـ«حفريات» هي دعوة إخوانية مكررة ومرفوضة من النظام والقوى السياسية في مصر للمرة الألف، ومع ذلك يغيب الإخوان غيبتهم ويعودون بعدها بنفس الدعوة مع كل محاولة تقارب مصري تركي، وكأنها مفاجأة وحل سحري، فضلاً عن كونها دعوة تكتيكية ثبت عدم مصداقيتها منذ عهد البنا، مروراً بجميع من خلفه على مقعد مرشد الجماعة.

«الباحث هاني عمارة لـ«حفريات»: ما يهم الجماعة هو الحفاظ على شبكة المصالح الاقتصادية الكبيرة، التي توجد في دول عديد، وبخاصة دول شرق آسيا»

وأشار جميل إلى تاريخ المراوغات الإخوانية، بقوله إنّها بدأت مع البنا تحت شعارات مختلفة بدأت بمقال «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين» ثم تكررت مع كتاب حسن الهضيبي «دعاة لا قضاة» حتى وصلت إلى شعارات «مشاركة لا مغالبة» التي رفعها الإخوان بعد ثورة يناير، وكشفت الأيام كل مرة انتهازية تلك الشعارات الفارغة، لجماعة بنيتها الفكرية تقوم من الأساس على فكرة شمولية الإسلام، التي لا يمكن معها فصل المجال الدعوي عن المجال السياسي إلا على سبيل التكتيك فقط.

بدوره يقول الباحث في الفكر الديني والحركات الإسلامية، هاني عمارة، بأنّ الجماعة تشهد ارتباكاً شديداً لم يمروا به من قبل، ولهذا جاءت فكرة العامين لإتمام المراجعات، لأنّهم لم يستقروا على شيء بعد بخصوص هوية الجماعة، ودورها في العمل العام. ولفت إلى أنّ حديث القيادي الجزار عن نشر جزء يتعلق بالمراجعات بعد ستة أشهر، يؤكد على أنّ فكرة المراجعات هي تكتيك؛ لأنّهم ينتظرون ما ستسفر عنه الانتخابات الرئاسية في مصر، وبناءً على نتائجها سيقررون وجهتهم.

حلّ جماعة الإخوان

بشأن حديث القيادي الإخواني الجزار، عن أولوية العمل الاجتماعي، يعلق الباحث عبد السميع جميل، بأنّ فكرة العمل الدعوي الإخواني أخطر بكثير جداً من العمل السياسي، وليس العكس كما يروج البعض، من كون العمل الدعوي عندهم أقل خطراً من انخراطهم بالعمل السياسي؛ لأننا أمام جماعة شمولية بالأساس، لا يمكن فصل الجانب الدعوي عن السياسي عندها. وأفاد جميل بأنّ كل

عبد السميع جميل: دعوة إخوانية مكررة ومرفوضة

التجارب في عهد عبد الناصر والسادات ومبارك، أثبتت أنّ العمل الدعوي المزعوم هو الباب الذي تعود منه الجماعة كل مرة للمشهد السياسي، وهو نفسه الباب الذي تدخل منه للمجال السياسي لتفكيك الدولة.

يذكر أنّ فكرة العمل الدعوي كانت الصورة العامة التي قدم بها حسن البنا جماعته إلى المجتمع، حيث كانت جمعية خيرية مشهرة، ولهذا انضم إليها العديد من رموز المجتمع المصري، ممن كان أسلوب حياتهم يناقض بشكل عام رؤية البنا. لكنّ الأخير عمل في السر على تأسيس كيان اعتبره الكتلة الأساسية في جماعة الإخوان المسلمين، ولهذا اعتمد على تنشئة جيل من شباب الجامعات، وكوّن بهم التنظيم الخاص الذي ارتكب أعمال عنف. من جانب آخر فالعمل الاجتماعي وفق القانون يجب أنّ ينفصل عن العمل السياسي، كما أنّ القيام بدور اجتماعي لا يتطلب أنّ يكون الفرد مؤمناً بأفكار تناقض الدولة الوطنية وتميز بين المواطنين وتحمل بذور العنف.

إن المراجعات تعني بالأساس بحث جذور الفكر التي قامت عليها جماعة الإخوان، وبمعنى أدق التخلي عن جميع الأفكار التي تشكل هوية الجماعة، وبالتالي تفكيكها، وعدم الدعوة إلى كيانات دينية، وهو أمر لن يفعله الإخوان المسلمون بأي حال. يقول الباحث هاني عمارة، بأنّ الإخوان يعيشون مرحلة يسعون فيها إلى إعادة بناء التنظيم، وأي حديث غير ذلك فهو استهلاكي لتجميل صورتهم.

ولفت إلى أنّ ما يهم الجماعة هذه الفترة هو الحفاظ على شبكة المصالح الاقتصادية الكبيرة، التي توجد في دول عديد، وبخاصة دول شرق آسيا، وما يتخوفون منه هو انهيار هذه الشبكة التي تحفظ كيان الجماعة من الانهيار، رغم كل الخسائر التي طالتهم في المنطقة. يقول عمارة بأنّ تخلي جماعة الإخوان عن الأهداف السياسية يعني تفريغ فكرة الإخوان من مضمونها؛ لأنّ تلك الأهداف هي عوامل الجذب في الحشد والانضمام للجماعة.

كيف تأثر الحوثيون بجماعة الإخوان المسلمين؟

في دراسته بعنوان «تأثير جماعة الإخوان المسلمين في فكر حسين بدر الدين الحوثي»، يعود الأكاديمي السعودي حمد بن سليمان بن عثمان التركي، إلى مرحلة العلاقة بين جماعة الإخوان المسلمين ونظام حكم الملالي بعد الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، وذلك لتأصيل التأثر الحوثي بالإخوان.

يقول «تشابه الفكر الحوثي بالإسلامويات الحركية السنية ما هو إلا جزء من العلاقة التأثيرية المتبادلة بين الثورة الإيرانية، التي يلتزم حسين الحوثي في مَلازمه بالسير على هديها والاقتداء بقادتها، وجماعات الإسلام السياسي السنية، وخاصة جماعة الإخوان المسلمين التي تعد من أكبر المحفزات عند الحركيين الشيعة.»

الالتقاء الأيديولوجي

في دراسته، قال التركي بأنّ الجماعات الإسلامية السنية والشيعية، بينهما علاقة تأثر؛ سواء في البنى الفكرية، أو في الوسائل والأهداف، رغم التباين المذهبي. وذكر أنّ حركة أنصار الله المعروفة بجماعة الحوثي في اليمن، إحدى هذه الجماعات التي جمعت بين البنية الإخوانية الظاهرة في خطابات مؤسس الجماعة حسين بدر الدين الحوثي، والسعي إلى محاكاة الثورة الإيرانية، التي لم يخف إعجابه بقادتها، ويرى فيهم القدوة التي يجب اتباعها.

استناداً إلى قراءة المؤلف في ملازم حسين بدر الدين الحوثي، التي أصبحت بمثابة كتب التعاليم المقدسة عند الحوثيين، يرى أنّ حجم التأثر الحوثي بجماعة الإخوان المسلمين تجاوز إلى مرحلة التلاقح الفكري والأيديولوجي والاقتباس. ويعدد الكاتب أوجه الالتقاء والتلاقح في الأدبيات المشتركة بين الجانبين، ومنها؛ الإيمان

حسين بدر الدين الحوثي

باستعادة الحكم الإسلامي، وهي الفكرة التي قامت عليها جماعة الإخوان المسلمين في الأساس، بعد انتهاء حقبة خلافة العثمانيين عام ١٩٢٤. وعند الحوثيين إيمان بنفس الهدف مع اختلاف الطريق، بسبب الافتراق المذهبي، وكون الحوثيين شيعة زيدية، يؤمنون بفكرة الإمامة لكنها إمامة دنيوية متجددة بخلاف الإمامة المنصوص عليها في المذهب الشيعي الاثني عشري.

ومن ضمن الأدبيات التي نقلها حسين بدر الدين الحوثي عن الإخوان المسلمين، فكرة الأممية المتجاوزة للحدود الوطنية، والتي وُجدت لدى الخميني ثم حزب الله، وتبناها الحوثيون، إذ «يحاول حسين الحوثي تثبيت مفهوم الأمة مكان المواطنة، رافضاً التربية التي تُعلي من شأن الوطن، لأنّه يرى بأنّ هذه الدعوات تعيد العرب إلى تاريخهم الجاهلي».

«يتشارك الإخوان والحوثيون فكرة تحجيم التفكير بالطاعة الحزبية العمياء، عبر منهجية تربوية تقوم على الانغلاق المذهبي وتغذية التعصب الفكري لضمان التبعية والولاء»

وثالث الأدبيات التي لقح حسين الحوثي فكر جماعته بها نقلاً عن الإخوان المسلمين، هي توظيف المصطلحات الشرعية سياسياً، يقول المؤلف: «ألهمت أطروحات منظري جماعة الإخوان المسلمين قادة الإسلاموية الشيعية ومنظريها في توظيف المصطلحات الشرعية في الصراع السياسي، من خلال صرف هذه المصطلحات على غير حقيقتها، لشرعنة استخدام العنف ضد الفئة الممتنعة».

على خطى سيد قطب

وتأثراً بسيد قطب، قال حسين الحوثي في إحدى محاضراته: «نحن في مواجهة الجاهلية الكبرى، والجاهلية الخبيثة، والجاهلية المسلحة بأفتك الأسلحة» وفي أخرى قال: «عدنا إلى الأمية والجهل من جديد، على الرغم من وجود القرآن بيننا».

وكتب سيد قطب في كتابه «معالم في الطريق» ما يلي: «نحن اليوم نعيش في الجاهلية، كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم. كل ما حولنا جاهلية، تصّورات النّاس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم». ويظهر من خلال ذلك نقل حسين الحوثي عن سيد قطب للفكر التكفيري الاستعلائي، الذي يوصم ملايين الناس بالجهل، مما يبيح لاحقاً إراقة هذه الدماء، وهي النتيجة نفسها التي تشاركها الرجلان؛ سيد قطب من خلال العنف في جماعة الإخوان وبشكل أكبر التنظيمات السنية التي تبنت مفاهيمه عن تكفير المجتمعات، والحوثيين من خلال سفك دماء الشعب اليمني والعدوان على دول الجوار.

على غرار الإخوان رفع الحوثي شعارات الموت لأمريكا وإسرائيل

كما تتشارك الجماعتان فكرة تحجيم التفكير بالطاعة الحزبية العمياء، عبر منهجية تربوية تقوم على الانغلاق المذهبي وتغذية التعصب الفكري في نفوسهم لضمان التبعية والولاء والإخلاص. ومن بين التلاقح الأيديولوجي بين الطرفين؛ تفسير القرآن الكريم حركياً، ويرى المؤلف السعودي بأنّ حسين الحوثي سار على نهج سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن» مع فارق كبير بين أدبية قطب وركاكة وضعف ثقافة حسين الحوثي، الذي قدم تفسيرات للقرآن وقام بإنزالها على الواقع لخدمة أهدافه لكن في شكل خطب ومحاضرات، استخدم فيها اللغة العامية.

وهناك ملمحان آخران نقلهما الإسلام السياسي الشيعي بشكل عام والحوثيون بشكل خاص عن الإخوان المسلمين، وهما؛ توظيف العداوة الغربية خصوصاً في شكلها الحديث في زمن الاستعمار من أجل الاستقطاب العاطفي، والمتاجرة بقضية فلسطين. وفي الحالة الأولى، على غرار ما تفعل جماعة الإخوان المسلمين، سار الحوثي برفع شعارات العداء والموت لأمريكا وإسرائيل، على الرغم من جلوس الحوثيين على طاولات المفاوضات مع الأمريكيين بعد الإطاحة بعلي صالح عام ٢٠١١ حتى العام ٢٠١٤.

«الباحث اليمني عمر باجردانة لـ«حفريات»: وجود تخادم عسكري وسياسي بين الإخوان والحوثيين في المحافظات الجنوبية، على الرغم من عدائهما في المحافظات الشمالية»

أما عن قضية فلسطين، فيشير الكاتب إلى أنّه رغم عدم قدسية المسجد الأقصى لدى الشيعة إلا أنّ الخميني وتابعه من بعده حزب الله والحوثيين والميليشيات المرتبطة بإيران، وظفوا قضية فلسطين لكسب التعاطف والتغلغل في العالم الإسلامي، وهو الطريق الذي انتهجه الإخوان المسلمون منذ نشأتهم، حين استغلوا القضية من أجل تأسيس التنظيم الخاص المسلح، بينما كان هدفهم ترهيب الخصوم، كما حدث بعد ذلك من اغتيالات طالت شخصيات مصرية معارضة لهم.

التخادم الحوثي الإخواني

ورغم التعاون الإخواني الإيراني في العديد من القضايا، على سبيل المثال كما في حالة مصر إبان حكم الرئيس الراحل محمد مرسي، حين التقى الإخوان بقيادة الحرس الثوري من أجل التنسيق بينهما في تعزيز حكم الإخوان في مصر، وكما في زيارة مرسي إلى طهران، كأول زيارة لرئيس مصري منذ الثورة عام ١٩٧٩، وذلك في عام ٢٠١٢، ثم زيارة الرئيس الإيراني أحمدي نجاد إلى القاهرة في عام ٢٠١٣، إلا أنّ هناك ملفات اختلف فيها الطرفان، كما في حالة اليمن.

وفي اليمن حتى العام ٢٠١٤ شكل الإخوان عبر ذراعهم السياسية؛ حزب التجمع اليمني للإصلاح، تحدياً أمام الحوثيين، بسبب سيطرة الحزب على السلطة بعد تنازل علي صالح عن الرئاسة وفق المبادرة الخليجية. ودفعت هيمنة الإصلاح على السلطة بعلي صالح إلى التحالف مع الحوثيين للتخلص منهم، وهو الأمر الذي يجعل باحثين يمنيين يحمّلون الإخوان لأجله المسؤولية عن المسار السياسي بعد العام ٢٠١١ والذي أفضى إلى سيطرة الحوثيين على صنعاء في ٢٠١٥.

عمر باجردانة: أيديولوجيا واحدة

وتنقسم العلاقة بين الإخوان والحوثيين في اليمن جغرافياً؛ بينما يعادي الطرفان بعضهما البعض في شمال اليمن، يعمل الطرفان سويةً وبتناغم في جنوب اليمن، حيث تجمعهما مصلحة مشتركة وهي محاربة المشروع الوطني الجنوبي.

وهناك دلائل عديدة على هذا التخادم، ومن ذلك تمكين الإخوان للحوثيين من احتلال مديريات في محافظة شبوة الجنوبية، قبل تحريرها على يد قوات العمالقة الجنوبية بعد عزل المحافظ الإخواني، محمد صالح بن عديو، وتولية الزعيم القبلي عوض بن الوزير العولقي.

يقول نائب رئيس لجنة الدراسات والبحوث والتدريب بالجمعية الوطنية للمجلس الانتقالي الجنوبي، عمر باجردانة، بأنّ الإخوان والحوثيين ينطلقون من أيديولوجيا واحدة؛ ترى في نفسها سلطان الله أو أوصياء الله في الأرض. وأضاف لـ»حفريات» بأنّ الجماعتين تنطلقان من الاعتقاد في فكرة مقدسة، ولهذا يرون في أي قوى تخالف مشروعهما حرباً على الإسلام.

ولفت باجردانة إلى وجود تخادم عسكري وسياسي بين الإخوان والحوثيين في المحافظات الجنوبية، على الرغم من عدائهما في المحافظات الشمالية، لكن ذلك «يعود إلى البراغماتية التي تتصف بها الجماعتين».

يذكر أنّ حسين بدر الدين الحوثي لقى حتفه عام ٢٠٠٤ في معارك صعدة ضد الجيش اليمني، وخلفه شقيقه الأصغر عبد الملك الحوثي في زعامة حركة أنصار الله، المعروفة باسم الحوثيين.

حماسة الإخوان في اختبار الزمان:
أيديولوجيا عتيقة وفقر معرفي

راجت أنباء عن توجهات إصلاحية من جيل الشباب داخل جماعة الإخوان المسلمين، لكن بمرور الأشهر لم تسفر تلك المحاولات عن شيء، بل تراجع دور الشباب إلى الخلف في ظل هيمنة الشيوخ والخطاب العتيق على الجماعة.

حتى تلك الأوراق التي قُدمت باسم تيارات تدّعي الإصلاح لم تأت بجديد، ولم تختلف في النقل والاستناد إلى مصدرين أساسيين، وهما وصايا المؤسس حسن البناء، ووصايا المنظر التكفيري سيد قطب.

ويعتبر الاتفاق على ذلك المصدرين سمة تجمع كل ألوان الطيف الإخواني، وهي تعني من جانب آخر أنّ مؤلفات ذلك المصدرين باتت في حكم التقديس، بما يشمله من التكرار والتقليد وغياب الإبداع، ولهذا يصبح من الطبيعي صعود التنافس الإداري على الزعامة داخل جماعة ميتة فكرياً، لكنها تملك إيماناً مبنياً على تقديس مقولات رجلين، وهما البنا وقطب.

أوهام التجديد

كتب الباحث خيري عمر في مقال منشور في موقع «معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى»، بأنّه لطالما كانت التحديات التنظيمية التي تواجهها جماعة الإخوان

استخدمت الجماعة حجج مفكريها حسن البنا وسيد قطب

المسلمين منذ فترة طويلة عاملاً حاسماً في تشكيل علاقاتها مع الدولة لعدة عقود، فطوال تاريخ الإخوان، كانت الإخفاقات التنظيمية الداخلية بارزة في جميع الأزمات التي مرت بها الجماعة. ومع سعيها لتقلد مكانة حركة دولية، ازداد الوضع سوءاً؛ حيث واجهت الجماعة صعوبات في التعامل مع الحكومات الوطنية.

وأشار الكاتب إلى تراجع مكانة القيم داخل جماعة الإخوان، «على الرغم من رسوخ مبدأ السمع والطاعة داخل الجماعة وتصوير مخالفته نوعاً من العصيان والفساد الأخلاقي، لم يطرأ أي تحسن على الاستقرار الداخلي داخل جماعة الإخوان المسلمين.»

كما تطرق إلى انغلاق الجماعة الفكري، وكتب: «فيما يتعلق بأيديولوجية الجماعة، وبشكل عام، استخدمت الجماعة حجج مفكريها المركزيين مثل حسن البنا وسيد قطب، حيث ركنت الجماعة، منذ نشأتها، إلى إرشادات حسن البنا في نسختها الأولية عن السلطة والحكم والدولة، وذلك رغم عدم كفايتها للتعامل مع التغيرات المتواترة في النظام العالمي والدولة القومية.»

«جماعة الإخوان لا يمكن أنّ تتحول إلى شكل آخر؛ لأنّها قامت على وصم المجتمع بالضلال فلهذا ترى في نفسها المصباح والمرشد لهذا المجتمع»

وشهدت جماعة الإخوان المسلمين في مصر انقسامات كبيرة بعد العام ٢٠١٣، بعد الإطاحة بهم من السلطة في ثورة ٣٠ يونيو الشعبية. كانت البداية بالانقسام بين مجموعة مكتب التغيير بقيادة القيادي محمد كمال، الذي لقي حتفه في تبادل لإطلاق النار مع الشرطة المصرية في ٢٠١٦، وبين ما يسمون شيوخ الجماعة بقيادة محمود عزت ومحمود حسين.

ولم يكد ذلك الانقسام ينتهي، حتى ظهر على السطح انقسام آخر داخل مجموعة الشيوخ، بين جبهة يتزعمها محمود حسين ومجموعته في إسطنبول، وجبهة التنظيم الدولي بزعامة القيادي الراحل إبراهيم منير، وذلك بسبب الصراع على تمثيل القائم بأعمال المرشد الذي يقبع في السجون المصرية.

ومع هزيمة مجموعة التغيير التي كانت أول من انشقت وخلقت أجهزة ومكاتب موازية لمكاتب الجماعة الأم، روجت المجموعة إلى ضرورة تبني حركة إصلاحية داخل الجماعة، ومراجعة الأخطاء التي وقعت فيها، وأدت إلى الإطاحة بها من السلطة في مصر، لكن كعادة الإخوان المسلمين لم تتبن هذه الدعوة على أسس معرفية ورؤية واضحة للتغيير، ليظل كل حديث حول التغيير داخل الجماعة، متعلقاً بتقاسم المناصب والنفوذ فقط.

الفقر المعرفي لدى الإخوان

يرى الباحث في التاريخ والفكر الإسلامي، سامح عسكر، بأنّ أيديولوجيا الإخوان على مستوى الواقع غير ملائمة؛ فهم بدأوا كجمعية دينية، ولم تكن فكرة السياسية في ذهن البنا. وأشار عسكر في تصريح لـ«حفريات» إلى أنّ الجماعة دخلت الحياة السياسية وقت الحرب العالمية الثانية، وقبل ذلك كانوا منشغلين

«الباحث سامح عسكر لـ«حفريات»: جماعة الإخوان رجعية ماضوية تقوم على أوهام عن ترقب الدولة الفاضلة كما يترقب الشيعة عودة المهدي المنتظر»

بالأمور الاجتماعية والدعوية والترويج لوجوب طاعة الحكام، وكانوا مثل جمعية سلفية صرفة.

وتابع عسكر، بأنّ الملك فاروق هو من ساعد الإخوان، وشجعهم على التوسع، ولم يحظر حتى التنظيم السري لهم، ودعمهم لمواجهة خصومه السياسيين، وكانت تلك الفترة بداية توسع الجماعة. وشدد على أنّ جماعة الإخوان لا تنمو دون دعم أو على الأقل تجاهل من السلطة، لكن إذا ما واجهتهم السلطة فإنّها تتراجع، لأنّ فكرهم يتسم بالجبن.

وأشار الباحث في التاريخ والفكر الديني، إلى أنّ الإخوان يريدون الوصول إلى السلطة، لكن ليس بشكلها الحديث، بل السلطة التي كانت سائدة في التاريخ الإسلامي، كما عبر عنها الفقه السلطاني. وأوضح أنّ هدف الإخوان بتحقيق دولة الخلافة المزعومة مجرد هم؛ لأنّ تلك الخلافة التي يتحدثون عنها ليست سوى مجرد صنيعة خيالهم، عن ماضي يقدسونه دون قراءة أو فهم صحيح.

يرى عسكر أنّ جماعة الإخوان تعاني منذ نشأتها من الفقر المعرفي، بسبب انغلاق أفرادها عن المعارف الأخرى، وتركيزهم على الأيديولوجيا كما صاغوها وفق الاستناد إلى وصايا حسن البنا ومؤلفات سيد قطب. ويقول بأنّ تصورات الإخوان عن العالم الذي ينقسم بين دار الإسلام ودار الكفر، وما يرتبط بذلك من غياب فكرة المواطنة، وعدم وجود ديمقراطية أو حقوق إنسان، لم تعد أفكاراً مقبولة لدى الإنسان اليوم، بعد ما اكتسبه من خبرات ومعارف ووعي بذاته،

الجماعة لن تقبل التخلي عن سطوتها الأيديولوجية

يجعل من العبث محاولة تطبيق نماذج متخيلة عن حياة مضى عليها ١٠٠٠ عام، كدولة المسلمين في العصر العباسي، على عالم اليوم.

رجعية ماضوية

ولا يتوقع الباحث سامح عسكر نجاح أي محاولة لإصلاح جماعة الإخوان المسلمين، لأنّ الأفكار التي تنطلق منها الجماعة غير ملائمة للعصر والمستقبل. ويصف هذه المنطلقات بأنّها «رجعية ماضوية، تقوم على أوهام عن الدولة الفاضلة، في ترقب لعودة تلك الدولة كما يترقب الشيعة عودة المهدي.»

ويوفر الاطلاع على كتيب منشور باسم «المشروع السياسي» لتيار المكتب العام لجماعة الإخوان المسلمين (تيار التغيير) فرصةً لتقييم أطروحات التغيير لدى أخطر فريق انشق عن الجماعة لأسباب إدارية. لكن خطة هذا التيار لا ترتقي إلى العناوين البراقة التي حملها المشروع السياسي، من عينة الإصلاح، الذي اقتصر

على الحديث عن أخطاء وقعت فيها الجماعة والخصوم، ما يحيل إلى أنّ تلك الأخطاء تكتيكية، ولا تتعلق بأي شكل بالأيديولوجيا التي تقوم عليها الجماعة، والتي تتناقض بشكل كلي مع فكرة الدولة الوطنية.

وكان تيار التغيير طرح خطته الإصلاحية للجماعة بالفصل بين الجماعة كدعوة وبين العمل السياسي، ليتم السماح لأعضاء الجماعة بالانضمام كما يشاؤون إلى الأحزاب السياسية، شريطة أنّ تكون تلك الأحزاب تعمل على تحقيق الغاية النهائية وهي دولة العدالة والشريعة والحق، وفق زعمهم.

والخلاصة أنّ جماعة الإخوان لا يمكن أنّ تتحول إلى شكل آخر؛ لأنّها جماعة قامت على وصم المجتمع بالضلال، فلهذا ترى في نفسها المصباح والمرشد لهذا المجتمع، للخروج من الظلام إلى النور، ومثل هذه الجماعة لن تقبل بأي شكل التخلي عن سطوتها الأيديولوجية، من أجل قيم الدولة الحديثة التي تقوم على المواطنة، فلا مصلحة للإخوان المسلمين في حياة لا يسعون فيها إلى السيادة.